م. سرمد حاتم شكر



اعلام الكفاح

في سورية

اعلام الكفاح

في سورية

الطبعة الاولى

١٩٦٣

الناشران
احمد توفيق الايتوني ـ محمد حسين المسكي

الاهداء

الى جيل القدر

الجيل العربي الساعي ابداً الى مستقبله الماجد ..

اليه نقدم سيرة اسلافه من أعلام الكفاح

ومنائر الوطنية ، ليهتدي بخطاهم في سيره نحو

تحقيق اهداف امته العظيمة .

كلمة للتاريخ

هذه سيرة مشرفة لرجال اعلام من بلدنا .. لرجال الكفاح ، لرواد كانوا في مكان القدوة من صف النضال والوطنية والعلم والمعرفة . فهم دائما احياء في ضمير الامة ، وضمير الشعب ، وهم دائما انموذج انطلاقة امتنا العربية في درب نضالها الطويل ..

اننا اذ ننشر سيرتهم اليوم فلكي يترسم الجيل العربي الجديد الصاعد خطاهم ، وليذكر بما وهب اسلافه الوطن من عطاء مطلق وفداء عظيم ، يوم قارعوا الدخيل والمستعمر بسيوفهم والسنتهم واقلامهم واموالهم ، وذاقوا من ضروب العذاب والسجن والنفي والتشريد الواناً كثيرة .. بعضهم علق على المشانق ، وبعضهم سقط شهيداً في الساح مضرجاً بدمائه ، هاتفاً بحياة الوطن .

ان الاستقلال الذي نتفيأ اليوم ظلال دوحته الوارفة ، له ماقبله .. ففي سبيل هذا الاستقلال ضحى رجال الكفاح والوطنية بكل غال وعزيز لم يهادنوا عدوا ولم يساوموه ، بل ظلوا في مواقفهم الصلبة لايرضون بديلا عن الاستقلال .. فهم منذ ان خرجوا الى مشارف ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠ لصد سيل الشر الذي رماه البحر في الارض العربية ، اعلنوا النفير وظلوا في حالة جهاد وتضحية حتى يوم ١٧ نيسان ١٩٤٦ عندما جلا آخر جندي محتل عن ارضنا الطيبة ..

ان الاستقلال لم يصلنا على صينية من ذهب ولم ننله منة او احسانا ، انما جاء بعد ربع قرن من الكفاح ، من بذل الدماء والدموع .. لقدانتزعه رجال الرعيل الاول انتزاعاً من اشداق التنين الذي جثم على صدر هذا البلد واذاق شعبه الويلات .. ولكن .. هل سكت هذا الشعب ؟ هل استكان؟

هل سكت على ضيم ، هل بلع اهانة ؟ ابداً .. انه كان يرد الصاع اثنين .. حتى ان القواد الفرنسيين انفسهم اعترفوا بان الانتداب الفرنسي في سورية لم يلق يوماً واحداً من الراحة طيلة السنوات الخمس والعشرين التي قضاها في سورية.

هناك جوانب كثيرة في حياة هؤلاء الاعلام لاتزال غير معروفة لدى الناس ، ولقد تحرينا سيرهم تحرياً دقيقاً والينا على انفسنا ان ننشر الحقائق كما هي ، لاننا نقدم وثائق للشعب والتاريخ ..

ان الوحدة العربية التي اصبحت اليوم هدفنا الاعز ، ناضل اسلافنا كثيراً في سبيلها .. وحيوها وهم في ساحات الاعدام امام جلادي جمال باشا السفاح التركي .. فعندما نقول انهم كانوا في مكان القدوة ، فلانهم كانوا ابحق كذلك.

علينا ، نحن ابناء الجيل الجديد ، الا ننسى الذين مهدوا امامنا الطريق ، فاسماؤهم الكريمة يجب ان تكون مرفوعة امامنا دائماً ، وروحهم الطيبة يجب ان تكون بيننا دائماً حتى لانتهم بالعقوق وحتى لاتذهب جهودهم التي قدموها وارواحهم التي بذلوها رخيصة بلا قيمة ..

فليقرأ شعبنا سيرة هؤلاء الاسلاف البررة الذين اصبحوا اليوم في ذمة الله .. وليترسم خطاهم . فلا يضيع منه الطريق وهو في سعيه الى تحقيق اهداف أمته العظيمة .

الناشرون

ابراهيم هنانو



« كان يعطي الوطن طوعاً اكثر مما يأخذ منه المرض كراهية .. كان جباراً .. وحجته غالية ، فالذي يجود الوطن بنفسه لا يضن عليه بقوته » .

عاش كما عاش ، نقياً كالنار ، ثابتاً كالطود ، واسعاً كالبحر ، ومات كما تموت الشمعة التي تحترق لتضيء للناس وتلتهب حتى تذوب .

كان صحبه يريدون منه ان يتكلم دائما .. لان كلامه نور .. وكان يجيبهم دائما .. وحتى النفس الاخير ..

كان يعطي الوطن طوعا اكثر مما يأخذ المرض منه كراهية .. فقد كان جبارا وكانت حجته غالية .. فالذي يجود الوطن بنفسه لايضن عليه بقوته .

ان كفر تخاريم .. البلدة الوادعة الرابضة على كتف جبل غربي حلب لاتزال تعيش مع سيرة ابنها البار بطل الجهاد الكبير ، الذي صنع لنا تاريخا وبنى لنا معقلا .

في سنة الف وثمانمائة وتسع وستين ، ولد لسليمان هنانو ، غلام دعاه ابراهيم .. وفي جنبات البيت العريق الاصيل ، الذي يعود تاريخه القديم الى ثلاثة قرون خلت يوم قدم جد الاسرة الاكبر الى كفرتخاريم واستوطن فيها .. عاش ابراهيم هنانو طفولته الاولى وهو لايعلم ان القدر يعده لمهمة عظيمة ، وليكون قائداً لشعبه في نضاله من أجل الحرية والإستقلال ..

والبيت كأغلب البيوت الشرقية فيه الايوان الصيفي والبحرة والاشجار

المثمرة وقد خصه والده باحدى غرف الدار الواسعة يخلو فيها الى دروسه ومطالعته.

نشأ ابراهيم هنانو في بيئة ريفية وتلقى دروسه الابتدائية في مدرسة البلدة قبل ان ينتقل الى حلب لاتمام تحصيله الثانوي ..

وفي الشهباء انكب على منابع العلم ينهل حتى اتم تحصيله الثانوي . فانتقل للاستانة وهو في السابعة والعشرين من عمره ليتابع تحصيله العادي ويعود فيتسلم رئاسة ديوان ولاية حلب ..

بدأ كفاح هنانو السياسي بعد ان وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها فمثل حلب في اوّل اجتماع للمؤتمر السوري بدمشق في آب من عام ١٩١٩ .

وفي العام نفسه تشكلت في حلب منظمة من القادة الوطنيين باسم جمعية الدفاع الوطني وعهدت اليه بجمع المال والسلاح وتنظيم المقاومة .

وكان انذار غورو عام ١٩٢٠ دافعا لان تعم الثورة البلاد وتتخذ شكلا جديدا من المقاومة المنظمة .

وكما كانت كفر تخاريم مركزا لانطلاق الثورة في الشمال، كانت ايضا ، مركز القيادة الفرنسية في المنطقة . وقد فاجأ هنانو هذا المركز مع رجاله واستولى عليه.

وفي منطقة الجبل الوسطاني ، حقق ابراهيم هنانو سلسلة من انتصاراته على الفرنسيين وشهدت تلك السهول والروابي والجبال الوعرة عشرات المعارك بين المجاهدين باسلحتهم القليلة وايمانهم الكبير وبين اعدائهم المجهزين باحدث وسائل القتال الحربي .. وقد بلغ عدد المعارك التي خاضها هنانو مئة وسبع عشرة معركة. ماانحدرت فيها قواته ابدا ، وعلى اثر احدى هذه المعارك المظفرة في نيسان عام ١٩٢١ طلب الكولونيل فوان الفرنسي المفاوضة مع هنانو ، وكان الاجتماع التمهيدي في ايار فلم يؤد الى نتيجة الموقف الفرنسيين السلبي من الثورة واستقلال البلاد .. وارتأى هنانو ضرورة عقد اجتماع يضم زعماء اقضية: ادلب وكفر تخاريم وجسر الشغور والمعرة وحارم ، وقد عقد هذا الاجتماع في ادلب والقى فيه هنانو بيانا أحث المجتمعين فيه على اضرام نار الثورة في جميع انحاء هذه المناطق وتقرر بنتيجة الاجتماع شن الغارات مجددا على الفرنسيين واعلان الجهاد المقدس. فتدافع

الناس للانضواء تحت راية هذا الجهاد ، وكان مزيد من الانتصارات في اريحا وجبل الاربعين وجبل الزاوية . فما هادن المجاهدون الدخيل المستعمر لحظة ، وقد وضعوا نصب اعينهم هدفا واحدا لايحيدون عنه ، هو الجلاء عن ارض الوطن .

ويقول الشيخ ، يوسف السعدون ، رفيق جهاد هنانو واحد قواد المجاهدين في الشمال وهو يستعرض بدوره سيرة كفاح زميله الكبير : كم تمنيت لو ظـــل ابراهيم حيا حتى يكحل عينيه بيوم الجلاء .

وكذلك نباهة) ابنة ابراهيم هنانو التي توفيت والدتها بعد ان وضعت الابن الثاني (طارق) تعيش مع ذكرى والدها العظيم وتروي قصة محاولة الفرنسيين اختطافها عندما كانت طفلة ليرغموا والدها على الاستسلام .

لقد عمد الفرنسيون الى اعمال انتقامية كثيرة ضد هنانو فصادروا املاكه ، واعتبروه خارجا عن قانونهم وصدر ذلك في وثيقة باسم الحكام الفرنسيين آنذاك في سورية.

وقد تحدث شكري كنيدر الصحفي الوحيد الذي اختاره هنانو مرافقا له عن كيفية اعتقاله فقال انه غادر جبل الزاويه في يوم ١٢ تموز من سنة ١٩٢١ وبعد اربعة ايام اشتبك ورجاله الخمسة والخمسون مع القوات الفرنسية واخيرا استطاع بلوغ شرقي الاردن وفي يوم ١٣ آب زار القدس فاعتقله مدير البوليس الانـــكليزي فيها بناء على طلب من القنصل الفرنسي ونقلته السلطات الفرنسية الى بيروت ومنها الى حلب .

واودع ابراهيم هنانو في خان استنبول بحلب الذي جعله الفرنسيون سجنا عسكريا لهم .. بعد ان تقرر محاكمته ..

وحدد يوم الاربعاء الخامس عشر من آذار عام الف وتسعمائة واثنين وعشرين موعدا للجلسة الاولى امام محكمة عسكرية تتألف من خمسة ضباط .

وقد بعث محامي هنانو كتابا الى الجنرال غورو يدلل فيه على ان ليس ما يبرر من الوجهة القانونية القبض على هنانو الثائر المناضل وطالب باطلاق سراحه .. فجاء الرد عن طريق مفوض حلب .. « لابد من انتظار قول المحكمة » .

استمرت محاكمة هنانو التي تمت في بناء السراي القديمة سبع جلسات كان الناس خلالها يحتشدون في الشوارع والممرات يعلنون هتافهم بحياة المجاهد الكبير واستنكارهم التهم السبع التي حاول الفرنسيون الصاقها بالزعيم المناضل دون جدوى.

واعلنت براءة ابراهيم هنانو .. ونقل على اثرها ثلاثة من قضاته العسكريين واطلق سراحه فورا وعندما صعد العربة فكت الجماهير الحصانين عنها وجرتها حتى داره في تظاهرة وطنية رائعة ..

وعاود ابراهيم هنانو نضاله القومي والسياسي حيث تسلم قيادة الحركة الوطنية في البلاد وترأس الحزب السياسي الذي شكل آنذاك باسم الكتلة الوطنية .

واصبح المرجع الموثوق في البلاد للمواطنين والساسة ..

ولما دعيت البلاد السورية عام الف وتسعمئة وثمان وعشرين لانتخاب اعضاء الجمعية التأسيسية ، انتخب هنانو عن حلب واختير رئيسا للجنة الدستور فاتم وضعه وهو الدستور الذي نشر عام الف وتسعمئة وثلاثين وامامه وتم الاحتفال برفع العلم السوري لاول مرة فوق بناء المجلس التأسيسي بدمشق .

وظل هنانو يواصل الكفاح والنضال، حتى آخر نسمة من حياته، معرضا نفسه لشتى المصاعب والاخطار وفي اول ايلول من عام الف وتسعمئة واثنين وثلاثين اقدم جبان مأجور على محاولة اغتياله ولكنه باء بالفشل .

ولقي هنانو من الاهوال والشدائد والجوع ماأثر في صحته فاصيب بمرض السل ، وذهب في عام ١٩٣٤ الى بحمدون للاستشفاء ثم عاد الى قريته (ستي عاتكة) يشرف على مواسم الزيتون وكان اعضاء الكتلة الوطنية بحلب يزورونه في القرية ويأخذون منه توقيعه لتنفيذ مقررات التنظيم الوطني .

وفي صباح الخميس الخامس والعشرين من شعبان عام الف وثلاثمئة واربعة وخمسين ، الموافق للثاني عشر من تشرين الثاني عام الف وتسعمئة وخمسة وثلاثين قضى ابراهيم هنانو وفاضت روحه الكريمة الى بارئها العظيم .

وأذن المؤذنون ينعون فقيد الوطن والامة فاغلقت مدينة حلب اسواقها وخرجت تشيع الراحل الكبير الى مثواه الاخير .

وكان لوفاته وقع الفاشية على البلاد وفي انحاء الوطن العربي الكبير . وتتالت برقيات التعزية من الملوك والرؤساء والزعماء .

وفي صباح يوم الجمعة خرج المأتم الوطني العام في تشييع الجثمان الطاهر ، وحمله اخوانه ورفاق الجهاد على اكفهم الى الجامع الاموي بحلب حيث صلي عليه قبل ان يوارى مقره الاخير .. وفي اليوم التالي ، اضربت دمشق وارتفعت اصوات المؤذنين وقرعت اجراس الكنائس اعلانا للحداد الوطني العام على فقيد البلاد .

واينعت ثمار الكفاح الطويل .. وحققت سورية العربية هدفها العظيم وانتزعت استقلالها .. وكانت على عهدها مقيمة ..

وقد اوصى هنانو قبل وفاته بان لا يقام لهضريح الابعد ان تتحقق الاهداف التي كافح من اجلها .. وقد اراد الله لهذه الامة المجيدة ان تصل الى غايتها المنشودة وتجلو الدخيل عن ارضها ..

وفي كل مدينة من مدن سورية العربية يحمل احد الشوارع الرئيسية اسم البطل ابراهيم هنانو . تخليدا لذكراه الطيبة .

كان ابراهيم هنانو ذا وجه ابيض مائل الى السمرة تشع فيه عينان تتوقدان ذكاء وحزما ، وكان كثيف الحاجبين ، عريض الجبهة مديد القامة ، عفيف النفس ، كريم الخلق ، شهما ، مغوارا ، حاضر البديهة ، قوي الارادة ، لاتفتر له همة ، ولا يكبو امام الصعاب عربي الشمائل ، يأسو الفقراء ، ويضحي بكل عزيز لاسعاد الوطن.



يوسف العظمة

«كانت ميسلون نقطة انطلاق لمواكب التحرير ولمعارك أقضت مضاجع الفرنسيين طيلة وجودهم في سورية العربية .. كانت الرصاصة الاولى في معركة الجلاء التي حققت النصر العظيم في ١٧ نيسان ١٩٤٦» .

شهيد ميسلون .. الفداء الاول في تاريخ كفاحنا الحديث والبطل العربي الذي سار الى مشارف ميسلون يصد الطوفان الدخيل ويحمي شرف البلاد ليفتح صفحة مشرفة في سجل الامة العربية بهذا الجزء الغالي من الوطن العربي الكبير ...

وسيرة الفداء الذي بدأه يوسف العظمة قصة لم تنته . فما زال لهب الكفاح المقدس يصد طوفان الشر الذي جاء يزرع ليل المأساة في اجزاء عزيزة من أرض العرب وما زال ابناء واحفاد يوسف العظمة يحملون على عواتقهم القوية مهمة الدفاع في سبيل الاهداف العظيمة التي قضت دونها مواكب الشهداء .

في زقاق الصمادية من حي الشاغور في دمشق ولد يوسف العظمة عام ١٨٨٤ وهو سليل اسرة عريقة اصلها من حي الميدان الدمشقي وكان جده يسكن هذه الدار وهو من المجاهدين القدامى المعروفين .

والدار الذي شهد تفتح طفولة يوسف العظمة مبني على الطراز الدمشقي الشرقي .. وكان يوسف كثيراً ما يجلس في العصارى قرب الفسقية ليريح اعصابه من عناء العمل المتواصل .. وكانت اشجار الدار تلقى من عنايته في اوقات فراغه الشيء الكثير وقد قطع عدد من هذه الاشجار ومنها شجرة تين كان لها في نفس

الشهيد منزلة خاصة وبقيت اشجارها الياسمين والكباد تبحث في فنـــاء الدار عن الصاحب القديم .

اول ما يواجه الداخل الى الدار .. قاعة الاستقبـال التي كان الشهيد يجلس فيها الى ضيوفه وهي مزخرفة بالنقوش الهندسية القديمة وفيها بحرة ماء صغيرة اما القوس الذي يبدو في وسط السقف فهو يقسمها الى قسمين وتبدو نقوشه للعيان من كلا هذين القسمين ولا تزال هذه القاعة على حالتها ، وكأن يوسف ما ذهب في رحلة المجد البعيدة ...

وفي القسم الشرقي من فناء الدار يقوم سلم حجري كان الشهيد يصعد درجاته كل ليلة ليصل الى غرفة نومه التي كانت تشهد احلامه وفرحه وقلقه .. كان فيهـا فراش بسيط ومنضدة صغيرة وقنديل يتيم .. وكانت هذة الغرفة تشهد استيقاظه مع كل فجر ليؤدي فريضة الصلاة ويعد العدة ليوم من العمل الحافل .

وفي ايام الصيف كان الايوان الشرقي الجميل هو المكان المفضل لجلوس الشهيد واهل بيته .. كان اباً عطوفاً وزوجاً باراً لبيته .

لم يكن العظمة قد تعدى مراحل الطفولة بكثير عنـد ما توفي والده فكفله اخوه ونشأ على ثقافة عالية .. وكان مبرزاً في كافة مراحل تعليمه ..

وبعد ان نال الشهادة الاعدادية دخل المدرسة الحربية في الاستـانة وتخرج عام ١٩٠٣ من الكلية العسكرية برتبة ملازم ثان .

واخذ يتـدرج في الرتب العسكرية حتى زين صـدره بوسام المعارف الذهبي الذي أحدث في العـام نفسه وخصص لمن يحرز الاولوية من متخـرجي المدارس العالية .

وظل يوسف العظمة يتنقل في رتب عسكرية جديدة بين لبنان والاستـانة حتى وصل عام ١٩٠٧ الى رتبة معاون للقائد الالماني الجنرال تيفورت .

وبعد الحرب العالمية الاولى ارتأت الدولة السورية ان تستفيد من مواهبـه الفذة في الفنون العسكرية لقيادة جيشها الجديد حيث برزت مواهبه .

وعين يوسف العظمة وزيراً للحربية في الجيش السوري عام ١٩٢٠ في عهد وزارة المرحوم هاشم الاتاسي .

وكان الشهيد يساهم في شتى مراحل حياته بالحركات الوطنية التحررية مساهمة فعالة ويلاقي العنت والاضطهاد ولكن ذلك لم يزده الا قوة ومضاء .

له ابنة وحيدة اسمها ليلى تركها امانة في عنق الملك فيصل وسار الى الجهاد.

وفي يوم ١٤ تموز سنة ١٩٢٠ وجه الجنرال غورو الى الحكومة السورية في دمشق انذاره المعروف وفيه المطالب القاسية التالية :

١ – وضع سكة حديد رياق حلب تحت تصرف الجيش الافرنسي

٢ قبول الانتداب الفرنسي

٣ – الغاء التجنيد الاجباري وتسريح المجندين

٤ – قبول الاوراق النقدية التي اصدرها البنك السوري

٥ – معاقبة الذين استرسلوا في عداء فرنسا .. وحدد الانذار مهلة اربعة ايام للرد تنتهي قبل منتصف ليل ١٨ تموز ١٩٢٠ وفي حالة قبول الشروط يجب ألا يعرقل دخول القوات الفرنسية لسوريا اما في حال الرفض فان فرنسا ستصبح حرة في اعمالها وان مسؤولية الويلات التي ستنصب على البلاد ستقع على كاهل حكومة دمشق ..

ابرقت حكومة دمشق بطلب تمديد مهلة الانذار حتى يوم ٢٠ تموز وفي عصر ذلك اليوم قررت قبول الانذار وتم تسريح الجيش .

وقد أثار هذا القرار الرأي العام في الوقت الذي كانت فيه القوات الفرنسية تزحف الى سورية وحجة قادتها انهم لم يتلقوا برقية القبول بسبب انقطاع الاتصال البرقي ولكن يوسف العظمة رفض الرضوخ لبنود الانذار الفرنسي فأعلن النفير .. كان يقول لكل من حوله : لن يدخل الفرنسيون ارض الوطن الا على جثتي .

كان يدفعه الى هذا القول ايمانه بان شرف الوطن يجب ان يصان ويدافع عنه بالدم .. ولهذا دعا الناس الى التطوع ..

وانطلقت افواج المتطوعين حاملة ما وجدت امامها من سلاح وخرج يوسف من بناء المشيرية الذي يقوم مقامه الان قصر العدل وانطلق في مقدمة المتطوعين الى بطاح ميسلون .

كانت معركة غير متكافئة .. وعند ما بدأت الدبابات الفرنسية الثقيلة تدعمها المدفعية والطائرات عدوانها لاحتلال سورية العربية وزع يوسف العظمة رجاله في خط دفاع ليقاتلوا حتى الموت دون ارض الوطن .. وشهدت الهضاب والتلال بطولات فذة استبسل فيها المجاهدون وابلوا احسن البلاء .. كانوا يحاربون بايمانهم الحديد والنار كانوا يعيدون يوماً آخر من ايام العرب الخالدة .. وتساقط الشهداء واحداً تلو الآخر يروى التراب بدمه الذكي ..

وفي غمار المعركة المحتدمة كان يوسف العظمة يتنقل بين مراكز الدفاع يثير الحماسة في النفوس ويذكي الحمية في القلوب الكبيرة وهو يلقم المدفع الحمم الفاتكة بيده .. وهنا قامت الدبابات والقوات الفرنسية بعملية التفاف على طريقة الكماشة في الوقت الذي كانت فيه الطائرات تنزل حمولتها من القنابل على تحشدات المجاهدين الذين ما كانوا يملكون سوى البنادق القديمة كسلاح يدافعون بها دفاع المستميت .

اجل .. لقد كانت معركة غير متكافئة ، كانت فرنسا قد حشدت لها قوات ضخمة واسلحة حديثة ، وكميات كبيرة من الذخيرة ، ومع كل هذا ، فقد صمد يوسف العظمة ورفاقه صموداً جباراً اذهل المعتدين ، وامتدت المعركة ساعات في الوقت الذي كان فيه الكولونيل غوبيه ، قائد الحملة الفرنسية . يظن انه يستطيع سحق المقاومة بربع ساعة .

ومن مفرق دير العشائر الممتد الى يسار الذاهب الى بيروت جاءت قوات فرنسية اخرى تدعم القوات الرئيسية المعتدية ، وقد تنبه يوسف العظمة الى خطة الفرنسيين فسير في وجههم كوكبة من رجاله اشتبكت معهم وكتبت بدورها طرفاً آخر من الملحمة البطولية الرائعة .

وكان لا بد للقوة الصغيرة المدافعة مع يوسف العظمة ان تتخذ لنفسها مواقع

جديدة دفاعية الى الخلف بعدان فتح الفرنسيون لهم طريقاالى ميسلون باتجاه دمشق.

ولكن القوة الصغيرة المؤمنة لم تهادن ، وكان اكثر من اشتباك ، وفي كل مرة يتساقط الشهيد بعد الشهيد ، تسقي دماؤهم شجرة الحرية وتروي للاجيال بطولة قوم ابوا الذل والاستسلام ، ووضعوا ارواحهم على اكفهم وبذلوها رخيصة حتى لايقول التاريخ يوما ان سورية العربية دانت لدخيل اومستعمر.

وفي ارض ميسلون يقوم اليوم مشتل زراعي حديث يروي بدوره فصلا عنيفا من المعركة الكبرى .

كان المجاهدون يدافعون عنه شبرا شبرا ، ويوسف منهم في المقدمة يحقق وعده بان العدوان لن يمر الا على جسده ..

واستشهد يوسف العظمة . وكان عظيما في موته كما كان عظيما في حياته ، كان رمزا للانسان العربي الذي حمل رسالة الجندي الشريف باخلاص . وكان رمزاً لهذا الجندي العربي الذي يلبي النداء اذا مادعا داعي الوطن ليكون دائما في خط النار ، يستقبل بصدره الرصاص الغادر ولسان حاله يقول: لأمت انا ، وليحيا الوطن.

وفي البقعة الخضراء من ارض ميسلون ، حيث قامت المعركة .. يقوم ضريح الشهيد الكبير يوسف العظمة ... هذا الضريح الذي يسير اليه قائد الجيش وكبار الضباط في يوم ذكرى ميسلون من كل عام لاحياء هذه الذكرى في اذهان الناس.

والضريح الذي يضم رفات شهيدنا الكبير ، نقش عليه كلمات متواضعة هي تعريف كبير لساكنه العظيم :

يوسف العظمة – وزير الحربية ... في ٧ ذي القعدة ١٣٣٨ .

هذا هو يوسف العظمة يتذكره الشيوخ من ابناء الوطن الذين خاضوا غمار المعركة في ميسلون يتذكرون قائدهم يوسف العظمة وبطولته الصامدة ويروحون يروون للجيل الجديد في اماسي الصيف وحول مواقد الشتاء قصة اليوم العظيم في ميسلون .

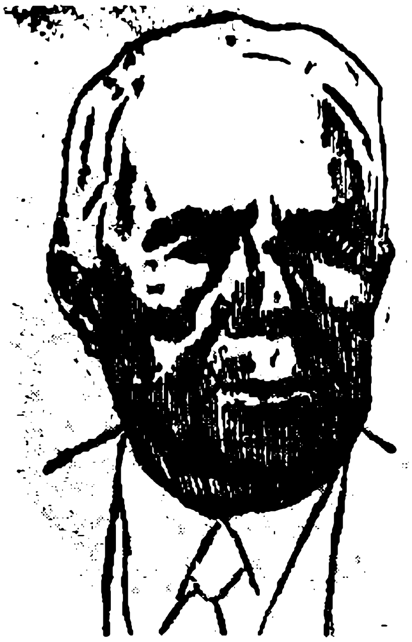
انه علم كبير من اعلام البطولة والفداء رفض ان يساوم على شرف بلاده وحمل الراية الى ساحة الجهاد يصد سيل الشر الذي رماه البحر في ارضنا الطيبة

في اليوم الرابع والعشرين من تموز عام ١٩٢٠ ويفجر اخلاصه بطولة رائعةشهد لها حتى الاعداء .

انها سيرة شهيد اعطى التضحية معناها الكبير واعطى الشعب تأكيداجديدا بان الفئة الصغيرة يمكن ان تغلب الفئة الكبيرة باذن الله اجل لقد كانت معركة ميسلون انتصارا عظيما.

كانت نقطة انطلاق لمواكب التحرير ولمعارك اقضت مضاجع الفرنسيين طيلة وجودهم في سورية العربية كانت الرصاصة الاولى في معركة الجلاء التي حققت النصر العظيم في ١٧ نيسان ١٩٤٦ .

وكان يوسف العظمة اول من مهر وثيقة التحرير دمه الكريم فكتب له الظفر في الارض والسماء واصبح في عداد الخالدين ...



فارس الخوري

« انه فارس .. ترجل عن جواده مرغماً ليلقى وجه ربه راضياً مرضياً .. لقد كان دائماً في مكان القدوة وفي صف الاعلام . أخلص لوطنه فأخلص له وطنه ، وأحب وطنه فبكاه الوطن بأكرم الدموع » .

حياة فارس الخوري تاريخ نضال أمة ، بدأت يوم ٢٠ تشرين الثاني من عام ١٨٧٥ بقرية الكفير بلبنان .. والده يعقوب بن جبور بن يعقوب بن ابراهيم الخوري .. وكان يعمل نجاراً .. ووالدته حميدة بنت جريس أبي رزق .. ومنذ طفولته كانت تلوح عليه مخايل الذكاء والعبقرية ، فانتقلت به أمه من صيدا حيث الحقته بالمدرسة الانجيلية فيها .

وتفوق فارس الخوري على اقرانه وحرق مرحلة عشر سنوات من الدراسة بخمس سنوات وعمل مدرسا في الوقت الذي كان يجتاز فيه صفوف الجامعة الامريكية ببيروت بنجاح . وتخرج عام ١٨٩٣ بشهادة بكالوريوس علوم بامتياز وعين بعد ذلك استاذا للرياضيات في الكلية الامريكية ببيروت .

وبعد سنوات انتقل الى دمشق فعمل استاذاً في كلية الروم الارثوذكس عام ١٨٩٩ ، وكان بنفس الوقت يدرس الحقوق ويتمرن على المحاماة حتى تقدم لفحص المعادلة ونال اجازة عاليه بالمحاماة وعمل مع المحامي المرحوم الاستاذ امين زيدان الذي توفي عام ١٩١٦ وبواسطة شريكه تعرف على ابنة اخته اثناء ترددها لزيارة خالها فخطبها وتزوجها عام ١٩١٠ وهي زوجته السيدة اسماء جبرائيل عيد .

ورزق منها ولدا واحدا عام ١٩١٢ هو الدكتور سهيل الخوري وللفقيد سبعة اخوة منهم اربعة ذكور ايوب وداوود ، وفايز وخليل .

وفي عام ١٩١٤ انتخب فارس الخوري نائبا عن(ولاية سورية) في مجلس النواب العثماني المعروف بـ (المبعوثان) ، وقد اعتقله جمال باشا خوفا من نشاطه القومي رغم حصانته النيابية واحاله الى ديوان حرب بتهمة التـآمر على الدولة ، وكان يطلق سراحه عند انعقاد المجلس خوفا من اثارة الموضوع .

وبعد سنتين من السجن برأته المحكمة .

وعندما انتهت الحرب ، عين فارس الخوري مستشارا في مجلس شورى الدولة وقد اصبح وزيرا للمالية في اول وزارة دستورية عربية قامت في البلاد . وغادر البلاد مع عائلته الى فلسطين بعد وقعة ميسلون ودخول الفرنسيين ثم عاد الى دمشق وعمل محاميا وقد ساهم بتأسيس الجامعة السورية وعين فيها استاذا لعـلم المالية واصول المحاكمات الجزائية في كلية الحقوق ،

وكان اول نقيب لاول نقابه محامين تأسست في دمشق عام ١٩٢١ .

وقد نظم اربع قصائد طويلة في تاريخ الحرب الروسية اليابانية التي نشبت عام ١٩٠٤ وطبعت في كراس .

وتابع فارس الخوري جهاده الوطني فالف مع الدكتور عبد الرحمن الشهبندر اول حزب وطني هو حزب الشعب الذي تحول فيما بعد الى الكتلة الوطنية حتى قامت الثورة السورية فحلتها السلطات الوطنية ، ونفي فارس الخوري الى جزيرة ارواد مع رفيقه فوزي الغزي الملقب بأبي الدستور السوري ثم نقل الى بيروت حيث فرضت عليه اقامة اجبارية .

وقد اصبح وزيرا لمدة شهرين في حكومة الداماد احمد ولكنه استقال عندما اكتشف خبث النوايا الفرنسية وذلك عام ١٩٢٦ .

وفي عام ١٩٣٦ رأت فرنسا ان لابد من اللجوء الى اسلوب اللين والتفـاهم السياسي .. وتشكل الوفد السوري الذي سافر الى باريس .

كان الوفد برئاسة هاشم الاتاسي وعضوية فارس الخوري وجميل مردم وسعد الله الجابري ومصطفى الشهابي ونعيم انطاكي واحمد اللحام.

سافر الوفد حيث وقع المعاهدة ثم عاد وجرت (الانتخابات) .. ففاز المرحوم هاشم الاتاسي برئاسة الجمهورية والمرحوم فارس الخوري برئاسة المجلس النيابي.

وتكرر انتخاب فارس الخوري لرئاسة المجلس النيابي حتى تاريخ حله في تموز ١٩٣٩ يوم عاد الفرنسيون ونكثوا بعهدهم واستولوا على السلطة ، وبعدها اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ولم تعد الحال الى هدوئها حتى عام ١٩٤٣ عندما عاد الحكم الوطني وتتابع تبادل رئاسة مجلس النواب ورئاسة مجلس الوزراء بينه وبين المرحوم سعد الله الجابري عدة مرات .

وكان ينجح في انتخابات مجلس النواب بالتزكية وهو غائب عن البلاد في خدمة قضاياها لدى الامم المتحدة .

ومنذ عام ١٩٤٥ حتى ١٩٥١ سجل فارس الخوري تاريخا حافلا في خدمة القضايا العربية . فقد مثل سورية في مؤتمر سان فرانسسكو حيث اقر استقلال سورية . وفي عام ١٩٤٨ ترأس مجلس منظمة الإمم المتحدة .

وكان رئيسا لمجلس الامن الدولي اكثر من مرة وكان عنصرا فعالا في تحرير اندونيسيا وليبيا وفي الدفاع عن القضايا العربية .

ساهم مساهمة مجدية في الدفاع عن قضية استقلال مصر . وعن قضية فلسطين وقد انتخب عضوا في لجنة التشريع المدرسية . كما كان عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق مع المغفور لهم محمد كرد علي وعبد القادر المغربي وخليل مردم والامير مصطفى الشهابي وغيرهم .

اعتزل فارس الخوري السياسة عام ١٩٤٩ وعاد اليها مع عودة الحكم الدستوري الشرعي عام ١٩٥٤ حيث شكل وزارة ائتلافية بتكليف من رئيس الجمهورية.

نال فارس الخوري الدكتوراه الفخرية من جامعة كاليفورنيا تقديرا لجهوده في الميدان الدولي . وكان يهدى شارات التقدير من كل مكان .

وكان ينظم الشعر الى جانب آثاره الحقوقية ، وقد نظم في شهداء ٦ ايار

قصيدة يقول في مطلعها :

بكيتهم وجدار السجن يحدق بي   وعين حافظة بالشر ترميني
وصاحب الحكم يمليه لكاتبه   وناصب الحبل في الميدان يدعوني

واصيب فارس الخوري قبل غروب شمس الثاني والعشرين من شباط ١٩٦٠ بكسر خطير في عنق فخذه الايسر ، وصبر على الآلام كصبر ايوب ونقل الى المستشفى حيث حدثت له اختلاطات ادت الى وفاته مساء ٢ كانون الثاني ١٩٦٢ .

وقد عاده في المستشفى كل ابناء الوطن كبارا وصغارا نذكر منهم رفيق جهاده شكري القوتلي ورفيق المنبر والكفاح الانساني ، الباندیت جواهر لال نهرو رئيس الحكومة الهندية الذي عاده في ايار عام ١٩٦٠ .

وقد كان فارس الخوري سباقا الى المساهمة في المشاريع الوطنية والشركات المنتجة المساهمة في عام ١٩٣٠ ساهم بوضع مشروع وتأسيس شركة الاسمنت الوطنية وظل محتفظا برئاسة ادارتها حتى عام ١٩٤٥ .

كما ساهم بتأسيس عدد من المشاريع والاندية كنادي روتري ومؤسسة مياه عين الفيجة التي امنت توزيع المياه النظيفة لمدينة دمشق وأصبحت رمزا من رموز التعاون المخلص بين ابناء الوطن الواحد .

واثناء وجوده في المستشفى كانت لمعات ذهنه تنطلق من سرير المرض توجيها ونصحا لرجال الدولة وللموظفين .

وفي جادة العازارين بحي باب توما ، يقوم بيته القديم الذي كان يقطنه قبل ان ينتقل الى بيته الجديد في المهاجرين . والبيت من الطراز العربي الشرقي تتوسطه بحرة ماء صغيرة . ثم تتسلق شجرة ياسمين الدرج الذي يوصل الى الطابق الثاني حيث توجد الغرفة العليا التي كان ينام فيها .

واذا دخلنا بيته الجديد الذي انتقل منه الى المستشفى فأول مايسترعي انتباهنا صورة كبيرة للفقيد في صدر هذا الصالون . هنا كانت تعقد جلسات يشترك فيها ابناء الرعيل الاول وكانت تقوم بينهم مناقشات وطرائف كان الفقيد يضفي عليها الشيء الكثير من انسه ولطفه .

وكان الراحل الكبير يعتز بصورتين تمثلانه وزوجته كما كان يعتز بالركن الهادىء الذي كان يجلس فيه الى جهاز راديو قديم ينصت اليه وهو ينقل انباء الدنيا ليكون على اتصال دائم بالاحداث العالمية والعربية المحلية . وبالرغم من ان اجهزة الراديو تطورت مع مرور الزمن فقد اثر الحفاظ على الجهاز القديم وكأنه يرى فيه الخل الذي يبثه اسراره صادقا .

والساعة ايضا كانت صديقة عمر الراحل الكبير ، يجلس الى جانبها بالعباءة العربية وامامه المدفأة تبعث الدفء في جسده والهدوء في اعصابه بعد يوم حافل من النشاط المتواصل .

وعندما يأخذ الكرى بتعاقد الاجفان، وينتهي العلامة الكبير من المطالعة كان يأوي الى سريره النحاسي المتواضع ليريح جسده من عناء العمل .

وكان لاينسى الاحتفاظ بمجموعة من الادوية الضرورية في صيدلية المنزل ، وكان الاحتياط للمفاجآت دابه في كل مراحل حياته .

ان كل من يزور بيت الفقيد ، يتصوره جالسا في ركنه المعهود ، يتحدث بحنان الاب وحزمه وغيرته على مصلحة ابنائه .

والى يسار الداخل الى بيت الفقيد تقوم مكتبته الضخمة التي تعد من اغنى المكتبات الخاصة بما تحويه من مجلدات وكتب في مختلف العلوم السياسية والقانونية ويؤكد المقربون منه انه قرأ جميع مايبدو في مكتبته من هذه الكتب والمجلدات وكان يحفظ اماكنها وعدد صفحاتها ومواضيعها ، بحيث يستطيع العثور بسهولة على أي موضوع طالعه في احد كتب مكتبته ولو مضى على مطالعته الكتاب عدة سنوات .

وكانت كبريات دور النشر تبعث اليه بما تطبع ، ولا سيما المجلات القانونية والحقوقية اذ ان مؤلفاته في علم المالية واصول الحقوقية لاتزال تعتمد في جامعات الغرب الكبرى .

ولفارس الخوري مذكرات قيمة . انها تاريخ كفاح طويل عاش تواتر احداثه بمرارتها وبانتصاراتها ودونها بخط يده لتبقى للتاريخ . ومن المنتظر ان تنسق

حفيدته كوليت هذه المذكرات ، لتصدر في كتاب يقرؤه الناس ؛ فيكون فيه للجيل الصاعد الخبر والعبرة والتاريخ .

ومع قصة كفاح فارس الخوري عاشت رفيقة عُمره السيدة اسماء ، تساعده في المحنة ، وتفرح معه في الانتصار . وهي اليوم تعيش حزينة على ذكراه وتردد مآثره فخورة بالرجل الذي اعطى بلاده اخلاصه وخدماته .

هذا هو فارس الخوري .. فارس ترجل عن جواده مرغماً ، ليلقى وجه ربه راضياً مرضياً .. لقد كان دائماً في مكان القدوة وفي صف الاعلام ، اخلص لوطنه فاخلص له وطنه . واحب وطنه فبكاه الوطن باكرم الدموع .

★

شهداء أيار

« كانوا الطليعة التي حملت مشعل الحرية ، ينيرون السبيل امام الشعب العربي ، ليس في سورية ولبنان فحسب بل في كافة انحاء وطننا العربي الكبير ... كانوا الدفعة الاولى الخيرة في العطاء .. رحبوا بالمشانق اراجيح بطولة ، واعطوا اروع مثال في التضحية والفداء » .



محمود المحمصاني



محمد المحمصاني

ابداً ، يظلون احياء خالدين في ضمير الامة العربية المكافحة .. هؤلاء الابرار الذين استشهدوا في دمشق وبيروت في ٢٠ آب من عام ١٩١٥ و ٦ أيار من عام ١٩١٦ ..

كانوا الطليعة التي حملت مشعل الحرية ينيرون السبيل امام الشعب العربي ليس في سورية ولبنان فحسب ، بل في كافة انحاء وطننا الكبير .. كانوا الدفعة الاولى الخيرة في العطاء .. رحبوا بالمشانق اراجيح بطولة .. واعطوا اروع مثال في التضحية والفداء ..

بعد المؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس عام ١٩١٣ والذي نادى بتحرر العرب واستقلالهم ، وصل جمال السفاح الى دمشق قائداً للجيش في سوريه ولعتقل زعماء البلاد ورجالاتها ، ووجد في التخلص منهم فرصة لتحقيق حلمه الكبير في التسلط على البلاد ومواردها ومصيرها .

وشكل جمال السفاح ديواناً حربياً في عالية حاكم رجالاتنا لوقوفهم وثورتهم في وجه الظلم والطغيان .

وشهدت دمشق وبيروت في صباح السادس من ايار عام ١٩١٦ اعدام قافلة من الاحرار .

ضمت الاولى سبعة منهم علقوا على المشانق في ساحة الشهداء بدمشق هم : شكري العسلي ، عبدالوهاب الانكليزي ، رشدي الشمعة ، عبد الحميد الزهراوي الامير عمر الجزائري ، شفيق المؤيد ، رفيق رزق سلوم ...

اما قافلة بيروت فقد ضمت : عبد الغني العريسي ، محمد المحمصاني ، احمد طبارة ، محمود المحمصاني ، توفيق البساط ، سيف الدين الخطيب ، عارف الشهابي عمر حمد ، علي عمار ، جرجي حداد ، امين حافظ ، جلال البخاري ، سعيد عقل سليم جزائري ، بترو باولي ..

وكان هؤلاء الشهداء قد نقلوا من عاليه الى بيروت ودمشق استعداداً للاعدامهم وكانت اصواتهم المؤمنة تشق جدران السجن مرددة :

نحن ابناء الألى　　شادوا مجداً وعلا

نسل قحطان الابي　　جد كل العرب

وحين نقل الاحرار الى ساحة الاعدام صاحوا بصوت واحد: خذونا كلنا معاً الى الاعدام .. لماذا التفريق بيننا ؟..

في حين صاح بترو باولي : هلموا اسرعوا فما نحن من الموت بخائفين .. لم يكن الاعدام ليخيف هؤلاء الاحرار ، ولم تكن سياسة التهديد والتنكيل والتتريك لتجدي مع الشعب المؤمن باصالته العربية وحريته واستقلاله .. وظن السفاح ان القضاء على الطليعة المجاهدة من رجال البلاد سيطفىء جذوة الحرية في

النفوس ولكنه ما درى ان السادس من ايار كان ناقوس اليقظة داعياً الى الثورة .

لقد دفع الحقد السفاح العثماني الى ان يشهد بنفسه تنفيذ الاعدام في الاحرار، فوقف في الشرفة المطلة على الساحة ثم ذهب الى قرية الخيارة في غوطة دمشق حيث قضى يوماً ماجناً ليبعد عنه شبح الجريمة .. وفيما يلي نقدم موجزاً عن حياة هؤلاء الشهداء :

شفيق المؤيد : اول القافلة .. ولد في دمشق عام ١٨٦١ وكان عضواً بارزاً في مجلس النواب وله فيه وقائع مشهورة ضد زعماء جمعية الاتحاد والترقي.. وكان هذا احد اسباب اعدامه .

آخر ما قاله على منصة الاعدام : ولا تحسبن الله بغافل عما يعمل الظالمون .

شكري العسلي : ولد عام ١٨٧٨ وكان عضواً في مجلس الاعيان ومفتشاً ملكياً عرف بخطبه دفاعاً عن العرب .

عبد الوهاب الانكليزي : ولد في قرية المليحة بغوطة دمشق عام ١٨٧٨، كان من ادباء دمشق .. مؤمناً بالقضية العربية ايمانا عميقا .. وكان مفتشا في الاناضول .

عبد الحميد الزهراوي : ولد في حمص عام ١٨٧١ ،عمل في الصحافة واصدر جريدة (المنبر) .. وحرر في جريدة (المعلومات) وكان عضوا في مجلس الاعيان .

عندما ازيح الكرسي من تحت اقدامه انقطع به الحبل فرفع من جديد وشد من رجليه شدا قويا حتى قضى .

عمر الجزائري : نجل الامير عبد القادر الجزائري ولد في دمشق عام ١٨٧١ وقد شنق بالرغم من انه كان بعيداً عن السياسة .

رشدي الشمعة : ولد عام ١٨٥٦ ، وكان عضوا في مجلس الاعيان .. وهو كاتب وشاعر معروف .

رفيق رزق سلوم : ولد عام ١٨٩١ في حمص ، كان راهبا .. الف رواية اسماها (امراض العصر الجديد) وكتابين احدهما (حياة البلاد في علم الاقتصاد

والثاني (حقوق الدول) كان حقوقيا مارس الصحافة وتدريس اللغات الاجنبية وقد جاء في قرار اعدامه انـــه كان يكتب الاشعار لتهييج الذين يسعون الى الاستقلال العربي .

امين لطفي الحافظ : ولد في دمشق سنة ١٨٧٩ عندما وقـف على كرسي الاعدام تناول الحبل من الجلاد ووضعه بنفسه حول عنقه ولكن الجلاد عاجله برفس الكرسي قبل احكام ربطه فتعذب كثيرا حتى قضى ..

سليم الجزائري . ولد في دمشق عام ١٨٧٩ كان من كبـار الضباط خاض الحرب البلقانية وقد سيق من ميدان القتال الى منصة الاعدام حيث قال للجلاد قل للخنزير جمال ان روحي ستظل حية وستعلم ابناء البلادمن وراء القبردروس الوطنية واستشهد بثوبه العسكري بعد ان رفض السماح بنزع شاراته .

عبد القادر الخرسا : ولد في حي القيمرية بدمشق عام ١٨٨٥ .. كان عظيما في حياته وعظيما في استشهاده .. وهومن كبار المجاهدين العرب.

سيف الدين الخطيب : ولد في دمشق عام ١٨٨٨ ،حقوقي ، واحدمؤسسي المنتدى الادبي ، وكان عضوا في محكمة بداية حيفا .

مسلم عابدين : ولد في حي سوقساروجة بدمشق عام ١٨٩٨ عمل صحفيـا واصدر جريدة (دمشق) وقد استمرت في الصدور سبعة شهور .

محمود جلال البخاري : ولد في دمشق عام ١٨٩٤ حقوقي ، كان عضوا في احدى المحاكم الكبرى ثم قائدا ضابطا في الجيش .

علي الارمنازي : ولد في حماه عام ١٨٩٤ اصدر جريدة (نهر العاصي) كان جريئا يطالب صراحة بالحرية والاستقلال .

احمد حسن طبارة : صاحب جريدة الاتحاد واحد اعضاء المؤتمر العربي الاول الذى عقد في باريس . كان كاتبا بليغا وخطيبا مفوها .ولد في بيروت وشنق فيها.

الامير عارف الشهابي : ولد في حاصبيا عام ١٨٨٩ حقوقي ، عمل في جريدة المفيد وكان يكتب بتوقيع عبد الله بن قيس ، كان صديقا حميما لعبدالغني العريسي.

عبد الغني العريسي : من مواليد بيروت عام ١٨٩٠ .. اقـــام بدمشق .. اصدر جريدة المفيد .. طلب الموت مع رفيقه الامير عارف الشهابي . . اشترك في المؤتمر العربي الاول ، وكانت جريدته لسان حال القضايا العربية ، وقال قبل الاعدام : بلغوا جمال السفاح ان الملتقى قريب ، الدول لاتبنى على غير الجماجم ولتكون جماجمنا اساسا لاستقلال بلادنا .

جورجي حداد : من مواليد لبنان ١٨٨٠ اقام بدمشق وامتهن الصحافة .. وكان في طليعة الذين اعدموا ببيروت من شهداء القافلة الثانية .

نايف تللو : ولد في دمشق عام ١٨٨٥ عمل صحفياً كمراسل لجريدة المقتبس كتب العديد من المقالات الوطنية الحماسية .

عبد الكريم الخليل : خريج مدرسة الحقوق ، اعطى القضية الوطنية اخلاصه مطلقا ، وقضى شهيداً في سبيلها .

توفيق البساط : حقوقي ووطني كبير .. هتف لما رأى احـــد عشر ا من زملائه معلقين على المشانق في بيروت : مرحبا يا ارجوحة الشرف . . مرحبـا ياارجوحة الابطال .. مرحبا بالموت في سبيل الوطن .. ووضع الحبل بنفسه حول عنقه . ورفس الكرسي ، فاستشهد ..

محمد المحمصاني : من ادباء بيروت ، والمحرر الاول في جريدة المفيد ، عـاد من مصر الى بيروت بعد اعلان الحرب ليساهم في الحركات الوطنية .. قال حين صعد الى المشنقة : كنت في السجن اقرأ تاريخ استقلال ايطاليا التي تحررت بدماء اخوين شهيدين فما اسعد حظنا انا واخي محمود اذا كان موتنا حياة للامة العربية ثم هتف : فليحيا العرب .

محمود المحمصاني : كان موظفا في مصلحة البريد شنق مع اخيه محمد في ساعة واحدة ببيروت بعد ان ودع احدهما الآخر .

سعيد عقل : من فقهاء الدامور بلبنان ورئيس تحرير جريدة النصير الـــتي كانت تصدر في بيروت .. قال للطبيب قبل صعوده منصة الاعـدام : ارجوك وانت من ابناء وطني ان تهوى بكل قوتك علي حال تعلقي لان خفـة جسمي تمنع انقطاع حبل حياتي بسرعة .

محمد الشنطي . كان من المناهضين الجريئين لسياسة التتريك .

نور الدين القاضي : كان من المنادين بالاستقلال النهائي من الحكم العثماني وقد تقدم برباطة جأش الى المشنقة وعلى ثغره ابتسامة هزء من الموت .

محمد هجم : كان يتدفق وطنيةوحماسة.. ويبث في البلاد الدعوة الىمناهضة سياسة التتريك .

بترو باولي : قال للطبيب الذي تولى فحصه قبل الاعدام : كان الاولى بكم بدلا من ان تفحصوا اجسامنا بدقة ، ان تحاكمونا بالعدل . هلموا اسرعوا فما نحن من الموت بخائفين .. وصعد بنفسه الى المنصة ، ورفس الكرسي بقدمه.

عمر حمد : في طليعة المجاهدين ، تلا ابياتا شعرية عندما انتصب على منصة الاعدام ثم التفت الى مدير البوليس رضا باشا قائلا : ابلغ حكومتك ان ظلمها هذا سيكون سببا في تقويض بنيانها .

والتفت الى الحاضرين وهتف : اموت فداء الامة العربية .. ليسقط الاتراك وليحيا العرب ، وهنا ثار الجلاد فركل الكرسي من تحته فهوى على الارض والدم يسيل من جرح بليغ في رأسه ، فطعنه الجلاد بسيفه شاتما .. ثم حمله ووضع الحبل في عنقه ثانية .

ابدا يظلون خالدين في ضمير الامة العربية المكافحة ، هؤلاءالابرار ، شهداء ٦ ايار الفداء الاول في تاريخ كفاحنا الحديث ، وطليعة التضحيات في سبيل ماننعم به من استقلال وحرية .. كانوا اكبر من ظلم العثمانيين وطغيانهم . كانوا مؤمنين بعروبتهم وبوطنهم وبامتهم .

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا .. بل احياءعندربهم يرزقون»

« صدق الله العظيم »

هاشم الاتاسي



خلت الديار فاست ابصر هاشماً
فوق الديار بجـلاله الفيـاح
رمز النضال على شباب زمانهـا
وصدى النفـاح وراء كل نفاح

استقبلت قلعة جزيرة ارواد . نزيلا جديدا . حكم عليه اعداء بلاده بالنفي وكل جرمه انه طالب بحرية وطنه واستقلاله . العام ١٩٢٦ .. والقوات الفرنسية التي جاءت تزرع في البلاد ليل المأساة تحاول ان تثبت اقدامها في ارض ينتفض فيها حتى التراب صارخاً في هذه الاقدام الاجنبية الدخيلة ان اخرجي فليس مكانك هنا .

وكانت الثورات السورية في كل مـكان .. في السهل والجبل .. في الغوطة والوادي في الشارع والخندق .. وكان رجال الرعيل الاول في مكان القدوة من صف الكفاح وفيهم رجل الوطن الكبير هاشم الاتاسي . الذي اعتقلته السلطات الاجنبية ونفته الى هذه القلعة .. حيث يتكلم التاريـخ .. وتروي الجدران الصم حكاية القافلة المؤمنة التي فضلت حياة النفي والسجن والتشريد والعذاب ، على ان تهادن اعداء الوطن .

كان الرجل الكبير وهو رهين زنزانته يفكر بما يحدث في وطنه .. باخوانه الذين لايزالون خارج القيود يؤدون واجبهم في ميدان النضال .. ثم تتراءى في ساح شعوره صور حياته . طفولته . حداثته . والبيت الذي عاش فيه ردحا كبيراً من حياته الاولى

في مدينة حمص . يقوم بيت والده . بيته الاول . موطن احلام الصبا . ومونل الهدوء في الشيخوخة .

كانت صورة هذا البيت واحدة من الصور التي تترى امام مخيلة هاشم الاتاسي في زنزانته . فيروح معها في استعراض المرابع :

الايوان الصيفي وكان يجلس فيه الى أصدقائه واخوته ، ولا سيما في عصارى وامسيات الصيف .

وحديقة الدار الوسيعة وكانت في وحشة مقيمة مادام صاحب الدار بعيدا في منفاه .

وليالي الشتاء . هل ينساها . انه لم ينسها . كان ايمانه كبيرا بانه سيعود اليها يوما . ليجلس على اريكته المعهودة متدثرا بعباءته الصوفية . يتأمل ويفكر . ويتحدث . ويتابع احداث الوطن واخبار نضاله فلا ينصرف يوما عن المهمة التي هيأه لها القدر .

ويمضي الشتاء . ويطل الربيع . وكرسيه في الايوان الصيفي يتململ انتظارا واملا بقدوم صاحبه . حيث تعقد من جديد حلقات الحديث الماتع . . وتمر صورة عزيزة .

بقي هاشم الاتاسي منفياً في جزيرة ارواد حتى اضطرت السلطات الفرنسية للافراج عنه تحت ضغط الرأي العام الوطني . . كانت ارادة الشعب اقوى من ان تناهضها سلطات الاحتلال مناهضة مباشرة فاذعنت .

لقد ولد هاشم الاتاسي ليكون قائدا في امته وهي تناضل المستعمر الدخيل ان الحي الذي ولد فيه بمدينة حمص حي شعبي متواضع اطلق عليه اسم (الباب المسدود).

ولد عام ١٨٧٣ ، ونشأ في هذا الحي . . ثم دخل المدرسة السلطانية في بيروت فامضى فيها سنة واحدة ، ثم سافر الى اسطنبول لمتابعة التحصيل . . وفي عام ١٨٩٣ تخرج ليعين في العام التالي في منصب اداري بولاية بيروت، ثم عين قائمقاما ببانياس وتنقل بعد ذلك في مناصب ادارية كمحافظ لحماة وعكا وجبل بركات وبوردور .

وظل في بور دور حتى وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها .

وفي عام ١٩١٩ عاد الى حمص وانتخب نائباً عنها في المؤتمر السوري، وانتدب عن الحكومة بتشكيل متصرفية حمص الجديدة . . وفي عام ١٩٢٠ انتخب رئيساً

للمؤتمر واعلن استقلال سورية وكلف بتشكيل الوزارة التي دعيت وزارة الدفاع ، وعلى اثر معركة ميسلون عاد هاشم الاتاسي الى حمص .

وبعد نفيه والافراج عنه ، وفي عام ١٩٢٨ انتخب عضواً في المجلس التأسيسي.

وانتخب رئيسا للمجلس التأسيسي الذي اوقف الفرنسيون اجتماعاته بعد ان رفض حذف المواد الست المشهورة من الدستور ..

وتتالت اجتماعات رفاق الجهاد في حمص وحلب لقيادة النضال الشعبي وتوحيد الصفوف .

كان الزعماء الوطنيون آنذاك لا يتركون فرصة دون ان يجتمعوا ليتداولوا في شؤون النضال القومي ..

وقادت الكتلة الوطنية التي كان هاشم الاتاسي من قادتها ، حركة اضرابات عمت البلاد السورية الى ان تم الاتفاق الاولي بين الكتلة والممثل الفرنسي في سورية للتفاوض ..

وتشكل وفد سوري برئاسة هاشم الاتاسي وجدد اعضاء الوفد العهد للشعب على المضي في طريق الكفاح حتى الاستقلال ..

وفي الحادي والعشرين من آذار عام ١٩٣٦ اجتمع الوفد السوري وتداول في امور المؤتمر المنتظر ..

وجرى لهم وداع شعبي حافل في حلب الشهباء قبل انطلاقهم الى باريس .

كانت لحظات رائعة .. الشعب المكافح وضع ثقته في نخبة رجاله الذين ما وفروا سلاحا في النضال ، وعزموا على دخول باب المفاوضة حتى يرضخ الدخيل.

وصل الوفد الى باريس .. وتوجه الى قاعة المفاوضات دون ان يضيع شيئا من الوقت .. وبعد مفاوضات ومداولات ، تأزم فيها الموقف ، ودخل مراحل حرجة عدة مرات ، تم توقيع المعاهدة المعروفة باسم معاهدة ١٩٣٦ بين الطرفين.

بعد عودة الوفد من فرنسا ، والبدء بتطبيق المعاهدة .. انتخب هاشم الاتاسي رئيسا للجمهورية وبقي فيها حتى عام ١٩٣٩ حيث استقال على اثر نكوص الفرنسيين عن تنفيذ بنود المعاهدة وانسحب الى حمص وعلى اثرها تشكلت

حكومة المديرين التي كان مقرها بناء المجلس التأسيسي الاول (سراي الحكومة حاليـا) ..

عاد الاسد الى عرينه من جديد .. عاد الى بيته الثاني الذي قضى فيه آخر ايامه يرقب الاحداث ويدلي بالنصائح والتوجيهـات .. ويحذر من التفرقة في الصفوف ..

وكان منزله قبلة الاحرار والوطنيين طيلة فترة اعتزاله السيـاسة ، ذلك لانه قام بتشكيل حكومة انتقالية عام ١٩٤٩ ، وانتخبته الهيئـة التأسيسية رئيسا للدولة ، وبعد وضع الدستور الجديد انتخب مجدداً رئيسا للجمهورية ، وذلك قبل ان ينزوي في بيته هدا بعد عام ١٩٥١ .

ولما وضع الدستور بعد عام ١٩٥١ ، استنكر زعماء الاحزاب ذلك الدستور فعقدوا مؤتمراً عاما في حمص ، وفي الغرفة التي تتصـدر البهو الكبير بدار هاشم الاتاسي قرروا بطلان هذا الدستور ..

وفي عام ١٩٥٤ عاد الى منصبه الشرعي رئيسا للجمهورية وبقي حتى شهر ايلول من عام ١٩٥٥ حيث انتهت مدته فعاد الى مدينته بالاجلال والتعظيم .

عاد يعيش في بيته آخر سني حياته .. وقد بدأ المرض يسير الى جسده بعد هذا العمر الطويل من الكفاح ، وكانت غرفة نومه التي تقع في اقصى الجهة اليمنى من البهو هي الغرفة التي عاش فيها آخر ايام حياته ، وكان تقويم الجدار هو المنبه الوحيد الى مرور الايام ..

وكان الفقيد يقتلع من التنويم كل يوم ورقة فيقرأ ما عليهـا من حكم وآراء وكانت آخر ورقة اقتلعهـا تحمل تاريخ اليوم الاسبق لوفاته .. يوم ٥ كانون الاول من عام ١٩٦٠ وكان آخر يوم ترددت فيه انفاسه الكريمة قبل ان تنتقل الى باريها العظيم .

مات هاشم الاتاسي .. هوت منارة النضال .. وتركت في الافق ضيـاء شروق لايزول .

وهب الوطن يبكي رجله المخلص الكبير ، فيشيع جثمانه الى التراب ..ويشيع ذكراه الى المنايا .

وفي موكب مهيب . سار المشيعون الذين ضاقت بهم شوارع حمص وابن الوطن فقيده الغالي ، وتبارى الشعراء في ذكر مناقبه :

الربع ربعي والبطـــاح بطاحي ... فاذا بكيت فقد بكيت جراحي
اين الذين اذا الديار دعت بهـم ... زحموا البراح فضـــاج كل براح
يغـــدو الفؤاد على مرائم ذكرهم ... فتهـــزه في غـــدوه ورواح
خلت الديار فلست تبصر هاشما ... فوق الديار بخلقـــه الفيـــاح
رمز النضال على شباب زمانهـا ... وصدى النفـــاح وراء كل نفـاح

وفي داره بعض من آثاره الباقية . . منها لوحة قدمها له المجلس البلدي في مدينة دمشق ، في كانون الثاني عام ١٩٣٧ ، منحه فيها لقب المواطن الدمشقي اعترافا منه بجميل صنعه واشادة بآثر اعماله .

وهناك الاوسمة التي نالها من الدول المختلفة لما كان يتمتع به من محبة رؤساء وشعوب اكثر الدول ولا سيما الصديقة .

وفي مقبرة اسرة الاتاسي بحمص يرقد هاشم الاتاسي الذي لقي وجـه ربه راضيا مرضيا . . وعلى قبره نقرأ : هنا يرقد هاشم بن خالد الاتاسي رئيس الجمهورية السورية السابق . . المتوفي يوم الثلاثاء في ١٦ جمادي الاخرة سنة ١٣٨٠ الموافق ٦ كانون الاول سنة ١٩٦٠ تغمده الله برحمته واسكنه فسيح جنانه . .

هذا هو هاشم الاتاسي . . الرجل الكبير في تاريخ كفاح هذه الامة المجيدة .



سعد الله الجابري

«ان سورية التي لم تبخل يوماً بالتضحيات ، تقبل من جديد على التضحية راضية النفس ، قريرة العين واثقة من انتصار قضيتها التي تعتبر قضية العرب جميعاً».

حلب الشهباء . تضيف الى قافلة النضال ابنها البار ، سعد الله الجابري ، ليقف في صف القدوة مع اخوته رفاق الجهاد . وتنشيء ساحة كبيرة ، تخليداً لاسمه ، وذكرى للاجيال الصاعدة من شعبنا .

ولد سعد الله الجابري في عام ١٨٩١ في منزل بحي السويقة بحلب ونشأ في بيئة عربية صرفة ، وشب على تربية وطنية قومية ، فامتزجت الفكرة الوطنية بشعوره ، وملأت حياته ثورة وحماسة .

والده الحاج عبد القادر لطفي الجابري ، احد كبار علماء حلب المشهورباسم (شيخ مدرسي الشريعة) .

وقد اكتسب سعد الله منذ حداثة سنه مقاومة الطاغي الدخيل والجرأة في قول الحق والشجاعة في الدفاع عنه .

عاش ردحا من سني حياته في بيته الـكائن بشارع القوتلي في حلب وقدتلقى دراسته في تجهيز حلب وسافر الى الاستانة حيث تابع دروسه فيها ثم انتسب الى كلية الحقوق في برلين وعاد الى حلب عام ١٩١٤ حيث دعي الى الجندية .

وعين ضابطا على قوافل الميرة والعتاد المرسلة من الاستانة الى ارضروم مدة

الحرب العالمية الاولى . ولقي من الالام والشدائد ماهيأه لحياته النضالية الحافلة .

وعاد الى حلب يوم اعلن انتهاء الحرب لينضم الى طلائع احرار العرب فيها وانتخب نائبا عن حلب في المؤتمر السوري .

ولما جرى الاستفتاء حول قبول الانتداب الفرنسي او رفضه كان دوره مع اخوانه بارزا في تنظيم الصفوف الوطنية ضد فكرة القبول . وازكه الروح القومية فجاءت النتيجة انتصارا عظيا لهم ، لان الشعب رفض كل انتداب .

رحل سعد الله الجابري الى مصر بعدالاحتلال الفرنسي وبقي هناك حتى نيسان من عام ٩٢ ، فعاد الى ارض الوطن ووجد ان المقاومة الوطنية قد تركزت في ثورة ابراهيم هنانو ، فاخذ يعمل على تقويتها بالمال والرجال .

وحين اعتقل ابراهيم هنانو وقدم الى المحاكمة قام سعد الله الجابري وشهد امام المحكمة بان ثورة هنانو كانت دفاعا عن حرية بلاده واستقلالها وبرزاسمه منذ ذلك الحين .

واعتقل في برج صافيتا لمدة سنة ، لان الجنرال الفرنسي دي لاموت مر به فلم يكترث ولم يقم له احتراما . ثم اعتقل ثانية في عام ٩٢٦ ونفي الى جزيرة ارواد مع عدد من اخوانه المناضلين

ولكن سعد الله الجابري ظل ابيا ، قوي الشكيمة ، هازئا بالسجن والنفي مستهينا بالصعاب في سبيل هدفه الكبير .

وفي شهر ايار من عام ١٩٣٤ ، وقع صدام بين الوطنيين ورجال الشرطة فاعتقل على اثره سعد الله الجابري .

وقد حكم عليه بالسجن مدة ستة اشهر وبغرامة نقدية قدرها ١٥ ليرة سورية وقد امضى سجنه ورفض ان يدفع الغرامة وسجن بدلا عنها سبعة ايام

وكان يحتفظ في داره بحقيبته المهيأة دائما للاعتقال او النفي ، لكثرة ما لقي من اضطهاد .

وفي داره كانت تعقد الاجتماعات بين اقطاب الكتلة الوطنية .

كان سعد الله الجابري عضوا في الوفد السوري الى باريس لتوقيع معاهدة ٩٣٦ .
ولم يقتصر نضال الفقيد على منطقته في الوطن دون اخرى بل كان كثيراً مايقوم بجولات في مختلف المناطق ليجتمع الى رجال النضال

وكان خطيبا مفوها . يخطب في جماهير الشعب فيلهب النفوس حماسة ، ويبين عظم المهمة التي يجب ان يؤديها الشعب حتى يحقق اهدافه العظيمة وينال استقلاله وحريته ، وقد انتخب سعد الله عضوا في المجلس التأسيسي مع ابراهيم هنانو فلعب دورا كبيرا في توحيد الصفوف النيابية وحشدها وراء القضية الوطنية .
وبعد وفاة هنانو اختير سعد الله الجابري زعيما للحركة الوطنية .

وقد قام بزيارات متعددة للبلدان العربية الشقيقة لتوطيد تعاون اقطار الوطن العربي .
وترأس وفد سورية الى اجتماع جامعة الدول العربية في القاهرة عام ٩٤٥ وفي الاجتماع قال كلمة سورية :

« ان سورية التي لم تبخل يوما بالتضحيات تقبل من جديد على التضحية راضية النفس ، قريرة العين واثقة من انتصار قضيتها التي تعتبر قضية العرب جميعا »
وتسلم سعد الله الجابري رئاسة الوزارة السورية .

وفي عام ٩٤٥ عندما وقع العدوان الفرنسي على سورية عبر عن استبسال الشعب في مواجهة العدوان بقوله :

كانت القنابل تتساقط على رؤوسنا فننتلقاها ونوزعها هدايا عن الممثلين الاجانب .
وانتصرت سورية وجلا الاجنبي بعد ان زرع في البلاد الدمار والمأساة .
وعادت ارض الوطن حرة كريمة

لقد اعطى سعد الله الجابري حياته النضالية قوته وطاقاته كلها ولكن المرض بدأ يتسلل الى جسده فسافر الى الاسكندرية حيث اجريت له فحوص طبية
وانتقل الى مزرعته في احدى ضواحي حلب لقضاء فترة نقاهة ولكن المرض ظل يتحداه ، وظل هو يتحدى المرض بنفس الوجه الباسم الذي تحدى به الصعوبات طوال حياته الحافلة بالنضال .

وقضى سعد الله الجابري ايامه الاخيرة في فراش المرض في منزل عمه فاخر

الطاري في المستشفى الايطالي في حمص ، حيث عاده جميع رجالات البلاد ورفاق الجهاد الى ان كانت ليلة الجمعة ٢٨ تشرين الثاني من عام ١٩٤٧ حيث انتقلت روحه الى باريها راضية مرضية

وشيع الوطن فقيده الغالي الى مقره الاخير الى جانب زعيم الكفاح ابراهيم هنانو .. وضريحه يزوره ابناء الوطن ليستمطروا شآبيب الرحمة على روحه .. ويقتدوا بسيرة حياته النبيلة الرائعة .

حسن الخراط



« هذا الثائر الشهيد .. يحن المرء الى طين قبره المهترىء . والى الزهرات البرية التي اعشوشبت من حوله ، فيقف امامه خاشعاً .. يكبّر » ..

في مقبرة الباب الصغير بدمشق قبر متواضع، لم تنبت حوله اعمدة ولاقباب ولا ارتعشت فوقه شعلة دائمة..متوحش . . يجتر الزمن في طمأنينة الخالد الذي خرج من اسار الزمن .. وفي الطرف الآخر من المدينة تخفق الاعلام وتـتترى دبابات الاستعراض .. فلا يصل الصوت اليه الا كهمس الذكرى هذا هـو قبر

الثائر الشهيد حسن الخراط .. يحن المرء الى طينه المهترىء والى الزهرات البرية التي اعشوشبت من حوله ، فيقف امامــه خاشعا يكبر وارض بلادنا مدروزة درزا بالرجــال .. عند كل نبتــة .. وكل صخرة وكل شرفـة ثائر مجهول تطل معه من حجب الغيب الام ثلاثـة ملايين من العرب مدى ربع قرن .. ان بحرا من الدموع والدماء يمتد بـين يوم ٢٤ تموز ١٩٢٠ ويوم ١٧ نيسان ١٩٤٦ بحر ثارت امواجه هلعا يركض في الدروب بين فوهات البنادق الثائرة وهي تبرز جريئة من المنعطفات والبساتين وبين لهيب المدافع الاستعمارية التي تشوي حتى الرضيعة والرضيع ..

وحسن الخراط اسطورة بطولية حية لاتزال تعيش في اذهان الناس ، ولا تزال ريحة طيبة تملأ كل البيوت .. وهذا هو الشاغـور .. الحي المجاهد الذي انبت حسن الخراط واخوانه المجاهدين وقد ولد في هـذا الحي عام ١٨٦١ من اسرة فقيرة لم تساعدها امكاناتها على ارساله الى دور العلم والتحصيل فشب أميا .

وفي منطقة الزار من الشاغور .. وفي زقاق ضيق تقوم دار حسن الخراط وكان شجاعا منذ نعومــة اظفاره ، ينصر الضعيف ، ويناهض الظالم ، وكانت كلمته في المدينة مسموعة ورأيه صائبا ..

ودار حسن الخراط لاتختلف عما يجاورها من دور حي الشاغور ، فهي مبنية على الطريقة الشرقية العربية ، وقد تعرضت لنقمة الفرنسيين اثناء مقاومة الخراط لهم فاحرقوها حتى اتت النار على اكثرها ..

في هذه الدار عاش حسن الخراط حياته حتى التحق بالثورة .. وكانت تعيش معه زوجته خديجة بنت عبد الرحمن السردار التي توفاها الله عام ١٩٦٠ . وكان يعيش معه ابنه فخري وابن اخيه سعيد.. وكان يحمل بين جنبيه قلبا كبيرا ووطنية عالية كما دلت اعماله الباهرة على انه من اصحاب تلك القـيم الشخصية النادرة .. عاش فقيرا .. ومات فقيرا . لم يطمع بجاه او مال . بـل جاهد في سبيل الله والوطن .

وكان يأبى الضيم ويدافع عن الحق حتى الموت ، ولا يهدأ باله حتى تزال المظلمة عن اخيه المواطن وكانت كرامة وطنه لديه فوق كل اعتبار . وفوق مستوى الشك والتلوث والتطرف .

لم يطرق بابه مستجير الا اجاره . وكثيراً ماكان يترك غرفة النوم المتواضعة التي كان يأوي اليها كل ليلة ، يهب الى مناصرة مظلوم او ضعيف ..

في العشرين من عمره ، تسلم حراسة البساتين الممتدة حول منطقة الشاغور في ضواحي دمشق . وحراسة البساتين انذاك كانت تتطلب رجلا قويا شجاعا يضرب على ايدي اللصوص بعزيمة من حديد . ثم التحق بسلك العسس الحراس واصبح عريفاً ثم اصبح رئيساً للحرس حتى قامت الثورة .

وقد بدأت الثورة منذ دخول الفرنسيين سورية ، وقد نشبت اول ما نشبت في جبل العرب وقد اشتدت هناك بعد وقعة المزرعة عنيفة ضارية ، وابلى رجال جبل العرب فيها بلاء ماجدا .

وبعث سلطان باشا الاطرش الذي كان يقود الثورة في جبل العرب كتابا الى رجالات دمشق للشخوص الى الجبل . وبعد اجتماع في احد بيوت المجاهدين بالقوادنة خرجوا وبينهم حسن الخراط الى جبل العرب حيث وضع ميثاق بين الثوار ينص على المطالبة بوحدة اجزاء سوريا واستقلالها .

وعاد حسن الخراط من جبل العرب الى قريته ببيلا ليتحدى السلطات الفرنسية بكتابين بعثها على الدواب . ثم انتقل الى جرمانة ، وتجمع حوله عدد من المجاهدين لايتجاوز الثلاثين رجلا .

واتجه حسن الخراط الى قلب الغوطة لتشكيل العصابات الثورية ، وبدأ المجاهدون يخرجون من دمشق للتمركز في انحاء الغوطة والقيام بمهاجمة المخافر وقطع الاسلاك التلفونية والمواصلات.

علمت القيادة الفرنسية باخبار ثوار الغوطة ووجدت ان بقاء الثوار في هذه المنطقة ومهاجمتهم للقوافل الفرنسية يشكل خطرا كبيرا عليها في المستقبل لاسيما

بعد ان ازداد عدد هؤلاء الثوار ، الامر الذي رأت القوات الاستعمارية ان من الصعب القضاء عليه للقضاء على الثورة .

وكانت معركة الزور الاولى حيث خسر الفرنسيون عددا ضخما من رجالهم.

وجن جنون المفوض السامي الفرنسي، واصبح في حيرة من امره ..واصبح مجرد اسم حسن الخراط يبعث في قلبه الرعب ، فقرر ان يتخلص منه فورا وارسل رجاله الى قرية المليحة لاعتقال الخراط او قتله .. وعلم بالامر ، ولم يكن في القرية عندما جاءه انذار بالهرب من اهل القرية ، ولكنه تحدى القوات الفرنسية وعاد مع عدد قليل من رجاله وفاجأ الجنود في البيوت بعد ان اخذ خيلهم ، وقفز مع رجاله عن السطح عليهم فشدهو لهول المفاجأة .

فساقهم اسرى الى جبل العرب بعد ان جمع بنادقهم واعطاها للثوار .

وعلى اثر هذا الفشل الذريع الذي منيت به القوات الفرنسية ، جهزت قيادتها حملة الزور الثانية ومؤلفة من بضعة الاف جندي .. وقد احرقت الحملة المليحة وبعض القرى وبعض بيوت الفلاحين ودارت معركة حامية بينها وبين الثوار ترك بعدها الفرنسيون ٨٠٣ قتلى وكمية من الذخيرة والعتاد .. وجرح حسن الخراط ونقل الى ببيلا حيث تولى الطبيب مداواته .

وقد خاض الخراط ورجاله ضد الفرنسيين معارك كثيرة رهيبة ..منها معركة جسر المطير ومعركة جسرين في ١٢ تشرين الاول من عام ١٩٢٥ .. وقد حقق الثوار في معاركهم كلها انتصارات رائعة رغم انهم لم يكونوا جيشا منظما وكان عدد جنود العدو اضعافا مضاعفة بالنسبة لعددهم .

وفي منطقة جسر تورا وقعت معركة تاريخية كبرى ، وذلك في العاشر من تشرين الاول من عام ١٩٢٥ وقد ظل الفرنسيون مدة طويلة لا يستطيعون عبور هذا الجسر .

في هذه الاثناء نزل من جبل العرب ١٥٠٠ فارس من ثوار الجبل وثوار دمشق لمهاجمة مدينة دمشق والاستيلاء عليها .. ودخل بعضهم من حي الميدان ومن باب سريجة . ودخل حسن الخراط من الشاغور وخلال يوم واحد تم احتلال الاحياء الثلاثة بينما اختفى الجنود الفرنسيون في ثكناتهم خوفا وتوجسا .

وقد انضم الى الثوار عدد كبير من اهالي دمشق وبـــدأ قتال الشوارع ، واختلط الامر على الجنرال سراي فامر بقصف المدينة بالمدفعية .

وكان حسن الخراط ورجاله قد زرعوا الخوف في نفوس الجنود حتى وهم في ثكناتهم ومخافرهم ومراكزهم .. وشنوا عليهم هجمات صاعقة كان اشهرها معركة قصر العظم التي وقعت يوم الاحد ١٨ تشرين الاول عام ١٩٢٥ .وفي اليوم الذي تلاه وقد استبسل فيها الثوار بشجاعة نادرة ولا تزال اثار الرصاص شاهدة .

واخذت المدفعية تصب حممها على الاحياء الآمنة ، واستمر القصف يوما كاملا دمر خلاله مايزيد عن ٦٠٠ بيت بالاضافة الى اعمال النهب والسلب بصورة لم تعهد كما اشترك سلاح الطيران بقصف المدينة ، وحدثت حرائق كثيرة رهيبة .

وانسحب الثوار من مدينة دمشق حرصا على ارواح اخوانهـم المواطنين وانتقلوا الى دوما فانضم اليهم هناك عدد كبير من اهالي البلدة ، وهاجموا القوات الفرنسية المرابطة هناك واحرقوا السراي والسجن، واخرجوا السجناء ثم عادوا الى جبل العرب . اما حسن الخراط فقد بقي في الغوطة لتنشيط العصابات الثورية واعادة تاليفها .

وقد نشبت بعد خروج الثوار من دمشق معارك عديدة منهـــا موقعة النبك ودوما ، وجسر تورا ويلدا وببيلا ، وبستان باكير ، وبستان الذهبي وداريا ودير العصافير التي انتهت بهزيمة منكرة للفرنسيين .

وكان رجال الخراط يأتمرون بامره دون تذمر ، وكانوا يشتركون معه في حفر الحفرة الكبيرة التي يغطونها بالقش والتراب ، لتسقط فيها آليات العدو ..

وكانت شجاعته هي التي تلهب الحماسة في قلوب اخوانه المجـاهدين . لم تكن لديه مفاهيم متبلورة عن الكفاح سوى الجهاد حتى الموت في سبيل الله والوطن .

وجـــاء حسن الخراط من قرية الست الى ضواحي دمشق للاجتماع الى قادة القوات الشعبية .. وقد حاول رفاقه اقناعه بعدم الذهاب لانهم خـافوا عليه من تعب المعارك السابقة ، ومن جرحه الذي لم يكن قد اندمل تماما .. ولكنه رفض الا ان يذهب الى دمشق .. وفي هذا المـكان وجد امرأة تسأل عنه ملهوفة، ولما

علمت انه هو ، قالت له ان الجنود الفرنسيين يقطعون الاشجار ويحاولون انتهاك حرمات البيوت ، فاتجه اليهم وكان اللقاء المباشر في المنطقة المسماة باسم الذهبي واشتبك الخراط والرجال القلائل الذين معه بالجنود الفرنسيين ..

وكان يحارب وهو واقف على قدميه لا يحتمي بالمتاريس والاشجار بل يحارب على ابعاد قليلة دون ان يحني رأسه أو ترتعش يده ..

وفجأة اصيب في خاصرته اليسرى برصاصة غادرة .. فهوى على الارض .

وكان الى جانبه ابن اخيه سعيد ورفيق جهاده على اللحام ، فصاح بالاخير وهو ينازع : اقطع رأسي وخذه معك لئلا يقول الفرنسيون انهم اخذوا رأس الخراط .. ولكن رفيقه لم يجرؤ على ذلك وحمله على دابته ، ولكنه نزف كثيراً في الطريق حتى قضي .. ودفن في ببيلا قبل ان ينقل جثمانه لدمشق .

ولكن رجاله اخفوا نبأ استشهاده لئلا تضعف الهمم وظلوا يحاربون باسمه مدة اربعة شهور .

وفي مقبرة باب صغير .. حيث يوجد ضريحه المتواضع .. تنتصب شاهدة كتب عليها صانعها ابياتا من الشعر املتها عليه عاطفته فجاءت صادقة حارة وان لم تكن جزلة :

جهادك ياحسن صار فخراً   لعز علاك بين الخلق طرا

وقد شيدت للاوطان مجداً   بجد مهند وأدمت ذكرا

فارضيت المهيمن يا حسن   قد اسداك مغفرة واجرا

ومذ ركدت رياحك صحت ارخ

شهيد وقائع قد مات صبرا

هذا قبر المرحوم الشهيد حسن بن محمد الخراط توفي في ١٠ جمادى الثاني من سنة ١٣٤٤ هجرية .

مات حسن الخراط شهيد الواجب ولكن اسمه ظل منقوشاً في القلوب ، كما نقش على المعاهد والمدارس والشوارع .. اسم الشهيد الكريم الذي اعطى بلاده عطاء مطلقا ، وجاهد في سبيل استقلالها حتى استشهد ، فكان خير امثولة

للجيل الصاعد الذي يدرج اليوم على الارض الكريمة وقد تحررت ، تستبد بقلبه العزة الفخور فيدق الاديم بقدم واثقة .

هذا وقد شهدت ساحة الشهداء ثلاثة من ابناء الوطن ، لحقوا بالقافلة الخيرة التي سبقتهم من شهداء ايار عام ١٩١٦ ، وكان فخري ابن حسن الخراط احد هؤلاء الثلاثة شنقه الفرنسيون بعد موت ابيه بشهور لانهم كانوا يخافون بطش ابيه ان شنقوه في حياته ... هذا هو حسن الخراط .. ابو محمد .

نداء نبيل في تاريخ كفاحنا .. واحد رجال ثورتنا ، خرج من صفوف الشعب المكافح الصابر المؤمن ليدخل اشرف ابواب التاريخ ..

* * *



الدكتور احمد قدري

« .. وفي مقبرة الباب الصغير بدمشق ووري التراب .. اما اسمه الذي حفر على رخام القبر ، فقد سطر قبل هذا في اكرم مكان من صفحات التاريخ».

بين سير رجال الرعيل الاول في سورية . رجال الكفاح الذي لم يهادن المستعمر والدخيل ، ولم يساوم على قضايا الوطن والامة . تبرز سيرة الدكتور احمد قدري الذي بدأ مع مطلع هذا القرن .

وبين مولده في بعلبك عام ١٨٨٩ ووفاته في دمشق عام ١٩٥٨ حياة حافلة . لخص بعضاً منها في كتاب جمع فيه جميع مذكراته عن الثورة العربية الكبرى التي واكبها عن كثب . ووقف على دقائقها واسرارها وتطوراتها

درس في مدارس فلسطين وبيروت واتم دراسة الطب في استنبول ، وتابع التخصص بعد ذلك في باريس .

وقد اعرب عن شعوره في مذكراته التي نشرها عام ١٩٥٦ بانه كان بعيداً عن الفكرة الاقليمية الضيقة ، شأنه في ذلك شأن سائر المفكرين العرب والوطنيين منهم ، اذ كان الوطن العربي الكبير هو الذي يجمعهم .

وقد بدأ حياته السياسية مبكراً ، وعلى التحديد في عام ١٩٠٨ اذ اخذ يعمل مع زملائه الشبان العرب بعد اعلان الدستور على الدفاع عن حقوق اخوانهم ورفع مستواهم . فقد اتفق مع بعضهم كالمرحومين محمد رستم حيدر ، وعوني عبد الهادي على تشكيل (جمعية الفتاة) السرية وذلك بعد اعلان الدستور العثماني باربعة ايام فقط .

وفي باريس عندما كان يتخصص في الطب قرر مع زملائه السير بالجمعية مؤثرين التستر الشديد بعد ان تألفت منهم اول هيئة ادارية فجمعته مع رفاق جهاده امثال عوني عبد الهادي وتوفيق الناطور ورفيق التميمي ؛ ومحمد رستم حيدر ومحمد المحمصاني ، وعبد الغني العريسي . ثم انضم اليها اخرون وكان بينهم عدد من الذين استشهدوا في ايار من عام ١٩١٦ .

في شارع الشهبندر في دمشق تقوم الدار التي قضى فيها الدكتور احمد قدري ايامه الاخيرة

وفيه جلس يكتب مذكراته التي لم يتمكن من اتمامها ، ان المذكرات تعود به الى اواخر الحرب العالمية الاولى ، حيث اشترك في جمعية الفتاة الامير فيصل نجل الشريف حسين اذ كان منتدبا في دمشق من قبل والده . وقد ازداد عدد المنتسبين الى الجمعية بعد جلاء الاتراك عن البلاد عام ١٩١٨ وخلال قيام الدولة العربية في دمشق ؛ وقد قررت الجمعية ان من دخل في الجمعية قبل دخول الجيش العربي لدمشق اعتبر عضواً مؤسساً ، ومن دخل بعد دخول الجيش العربي اعتبر عضوا عاديا .

وكانت زوجته .. رفيقة العمر ، العون له على الكفاح ، وعلى السير الى الامام ، وهي تعيش اليوم في داره وحيدة على ذكراه الذكرى الطيبة التي لن تزول مع الايام .

والده .. عبدالقادر .. تقاعد برتبة اميرالاي في الجيش العثماني ، وقد اختصر اسمه الى قدري واصبح هذا الاسم كنية لذريته من بعده .

كان المرحوم احمد قدري باراً بأهله ، كان محبوبا من الجميع لانه كان ذا لهفة وفي سبيل اهله ومعارفه كان يضحي تضحيات جسيمة .

وبالرغم من ان الفقيد كان الطبيب الخاص والصديق الحميم للملك فيصل طيلة مدة مكوثه في دمشق فقد عارض معارضة شديدة موضوع الاتفاق الذي كان يراد عقده وسمي بمشروع فيصل كليمنصو ، وادت معارضته الى عرقلة الاتفاق النهائي حول هذا المشروع .

وكان يصرح بانه غير آسف على المعارضة التي ابداها لان المشروع لم يكن

كافياً في نظره فضلاً عن انه لم يكن يعتقد ان الفرنسيين سيفون بما عاهدوا عليه. وقد تم ذلك فيما بعد ..

وكان الى جانب عمله السياسي لا يهمل ولا ينسى انه طبيب ولهذا كان يقوم بكافة التزاماته الطبية نحو الوطن والمواطنين وقد انشأ مستشفى المجتهد ومستشفى حمص ومستشفى درعا ، وغيرها من المستشفيات والمراكز الصحية في المحافظات وقد انتخب نائبا لرئيس جمعية الهلال الاحمر السوري عام ١٩٤٦ .

وفي عام ١٩٤٥ مثل سورية في المؤتمر الطبي العربي في القاهرة ، وفي المكتب الطبي الدولي المنعقد في باريس عام ١٩٤٦ وكان المرحوم احمد قدري يؤمن بالشباب العربي القوي ويرى فيه عدة الوطن .. ولهذا كان يشجع الحركات الرياضية والكشفية ويبث في اعطافها روح النشاط والامل .

وقد نال الفقيد عدة شهادات تمجد سيرته .. ففي عام ١٩٢٠ انتخب عضوا في المؤتمر السوري الذي اعلن في ٨ آذار استقلال سورية وحارب في ميسلون .

وسافر الى مصر بعد دخول الفرنسيين ثم الى بغداد . وفي عام ١٩٣٠ عين قنصلا للعراق في مصر ، وفي عام ١٩٣٤ رفع الى رتبة مستشار ونقل الى باريس اول ممثل سياسي لحكومة العراق في فرنسا ، واسس اول مفوضية عراقية هناك.

وفي عام ١٩٣٥ نقل من السلك الخارجي وعين عميدا لكلية الطب في العراق وزاول مهنة الطب .. وقد وضع تقارير ودرسات وابحاث قيمة ، سيما عن مرض الفرنج ، كان يؤمن ان مهنته الانسانية كطبيب لاتقل عن مهمته كرجل نضال ، ولهذا كان يسهر الليالي في البحوث حتى وضع عدة تقارير طبية مهمة حتى انه في عام ١٩٤٧ قام بجهود كبير في القضاء على وافدة الكوليرا التي اجتاحت سوريه في ذلك الحين ..

في عام ١٩٣٩ . جاء الى دمشق من بغداد ، ومكث فيها فترة وجيزة ، ثم عاد الى بغداد ثانية وبقي في وظيفته وعيادته حتى قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١ ونظرا لاشتراكه في هذه الثورة فقد اخرج من قبل الانكليز وسحبت منه الجنسية العراقية فقفل راجعا الى دمشق ..

وصل دمشق عـــام ١٩٤١ ، وكان يقطن دارا على الطراز العربي في منطقة

الشابكلية احد الاحياء الشعبية .. وفي العيادة المجاورة لداره قضى سنتين يستقبل مرضـــاه .

ولكم شهدت جدران العيادة الاجتماعات التي عقدهـــا كبار رجال الكفاح والوطنية ، حيث كانوا ينظمون خططهم في مقارعة المستعمر الدخيل .

وفي عام ٩٤٤ عـين مديراً للصحة والاسعاف العام وكانت المديرية مرتبطة بوزارة الداخلية ، ولكنه ظـل يسعى حتى تشكلت وزارة مستقلة للصحة عين امينا عاما لها عام ١٩٤٧ .

وقد كان لخدماته الوطنية والانسانية الجليلة صدى طيبا في كل الارجاء ، ولهذا تلقى اوسمة رفيعة وطنية ودولية ، واهدته اكثر من دولة ارفع مالديها من اوسمة تقديرا لخدماته الانسانية وكفاءاته الممتازة ، وظل حتى آخر ايام عمره يعتز بهذه الاوسمة ويعتبرها افضل عزاء لما لاقى من مصاعب في حياته النضالية .

اما السيرة فلم تنته .. فعندما قام الفرنسيون عـام ١٩٤٥ بعدوانهم الغادر على دمشق ساهم مع من المسؤولين بواجبه على اكمل وجه ... وفي عام ١٩٥٥ عاد الى دمشق من الاسكندرية التي كان قد سافر اليها ، وقضى ايامـــه في كتابة مذكراته عن الثورة السورية التي اتمها ونشرها عام ١٩٥٦ .

وفي مساء اليوم الثاني عشر من شهر تمـوز عن عام ١٩٥٨ توفي الى رحمة الله تعالى فخسر الوطن علما من اعلام الكفاح والطب والمعرفـة ، وسارت دمشق خلف الراحل الكريم تودعه الى مثواه الاخير ...

وفي مقبرة الباب الصغير ووري التراب اما اسمه الذي حفر على رخام القبر فقد سطر قبل هذا في صفحات التاريخ ، بأكرم مكان من صفحاته المشرقة .

عبد الحميد الزهراوي

« كان واحداً من القافلة الخيرة .. قافلة الشهداء . قرابين الوطنية الذين قدموا أرواحهم رخيصة على المشانق فداء لامتهم العظيمة ، فحق علينا ان نقرأ سيرتهم ، ونترسم خطاهم ، ونرفع أسماءهم الكريمة في كل مكان » .

ساحة الشرف في المدينة الخالدة .. ساحة الشهداء .. الغضبة المضرية في وجه السفاح الدخيل .

ساحة الشهداء .. تروي طرفاً من السيرة .. من ملحمة كفاح الامة .. كفاح احرار العرب . ساحة الشهداء فيها اختتم عبد الحميد الزهراوي حياته الحافلة التي اوقفها على خدمة قضية امته . فكان عظيما في حياته . وفي مماته .

وعندما نطلق اليوم اسم الشهيد عبد الحميد الزهراوي على مدارسنا وشوارعنا ودور المعرفة عندنا ، فليس ذلك تتبعا لتقليد درج عليه الناس ، وانما هو تكريم عميق لرجل عظيم كان واحداً من كبار مفكري العرب في مطلع القرن العشرين ، وكان واحدا من امراء البيان في تاريخ النهضة العربية .. وكان واحدا من احرار العرب الذين حاربوا الدولة العثمانية وسياستها حتى في مجالسها الرسمية .. وكان اخيرا واحدا من القافلة الخيرة .قافلة شهداء السادس من ايار عام ١٩١٦ . قرابين الوطنية الذين قدموا ارواحهم رخيصة على المشانق فداء لامتهم العظيمة .. فحق علينا ان نقرأ سيرتهم . ونترسم خطاهم . ونرفع اسماءهم الكريمة في كل مكان .

تبدأ حياة عبد الحميد الزهراوي في حمص .وفي شارع متواضع تقوم فيه دار كبيرة شهدت مولد شهيدنا العظيم .

كان ذلك عام ١٨٧١ . والحكم التركي مسلط على البلاد العربية ، واحرار العرب يحاولون اذكاء الوعي القومي في البلاد . عندما ولد عبد الحميد الزهراوي في هذا البيت ومن اسرة عريقة . حيث تلقى علومه الاولى على شيوخ بلده ثم

اكب بنفسه على التحصيل ومطالعة كتب الفقه والتاريخ والادب حتى بلغ في ثقافته شأواً بعيداً .

والذي يزور الدار الكبيرة التي قضى فيها عبد الحميد الزهراوي فترة خصبة من حياته النضالية والفكرية . لايجد سوى بعض الاطلال والغرف تروي مع دورة السنين حكاية صاحبها الراحل الكبير .

في عام ١٨٩٠ سافر الى الاستانة فاقام فيها فترة قصيرة ثم غادرها الى مصر فاتصل هناك بعدد من رجال الفكر والفقه والادب . وجرت بينه وبينهم مساجلات ادبية فكان موضع اعجاب وتقدير . وعاد بعد ذلك الى حمص واصدر جريدة سرية باسم المنبر انتقد فيها الحكم العثماني وجوره وعسفه وكان يحرر هذه الجريدة ويطبعها ويوزعها بنفسه .

وفي سنة ١٨٩٥ سافر مرة ثانية الى الاستانة للتجارة ، ولكن نشاط الطلاب العرب السياسي والعربي هناك جذبه ، فانصرف عن التجارة الى مطالعة كتب العلم والادب في مكتبات الاستانة والى نشر المقالات التوجيهية والانتقادية في جريدة (المعلومات) ووضع تحت المراقبة . ثم عرض عليه منصب قاض فرفض وفرضت عليه الاقامة الجبرية في دمشق ، فواصل نشاطه ، فنفي مخفوراً الى الاستانة ثم الى حمص.

استطاع عام ١٩٠٢ ان يفر الى مصر حيث واصل نشاطه الوطني والعلمي ونشر كثيرا من المقالات في جرائدها ومجلاتها.

وفي عام ١٩٠٨ انتخب نائبا عن حمص في مجلس النواب العثماني (المبعوثان) فرفع صوته هناك عاليا في المطالبة بحقوق امته وحريتها ، كما اصدر انذاك في الاستانة جريدة الحضارة وجعلها منبر الشباب العرب المتحمسين الذين كانوا يتمون تحصيلهم هناك ، وكان يحارب سياسة التتريك والعنصرية وعندما حل المجلس عاد الى حمص ولما اجريت الانتخابات الجديدة قاومته السلطات التركية فلم يفز بالنيابة

فعاد الى استنبول و واصل نشاطه السياسي والفكري ثم سافر الى مصر وشارك في نشاط (حزب اللامركزية) الذي كان ينتمي اليه ، كثير من احرار العرب ومفكريهم وعلى رأسهم الشيخ رشيد رضا .

عقدت الجمعية العربية الفتاة ، مؤتمرا ضم احرار العرب في سائر اقطارهم عام ١٩١٣ وتألفت لجنة للاتصال مع جميع الافراد والجماعات في العالم العربي والمهجر وكانت نتيجة هذه الاتصالات انعقاد مؤتمر في باريس في ١٨ حزيران من نفس العام فانتخب الشهيد الزهراوي رئيسا للمؤتمر الذي اسفر عن مقررات تحفظ كيان الامة العربية تجاه خطر سياسة التتريك. واعتبرت المقررات بمثابة برنامج سياسي للعرب وقام الشهيد عبد الحميد الزهراوي بتسليم نسخة عنها الى السفارة العثمانية في باريس.

وارسلت الحكومة العثمانية مندوبا للمفاوضة مع اعضاء المؤتمر وتم الاتفاق على امور اهمها جعل التعليم باللغة العربية وتوسيع السلطات الادارية والمحلية وتعيين اثنين من العرب عن كل ولايه في مجلس الاعيان وان يكون في الوزارة وزيران عربيان وتم تعيين الزهراوي وعدد من رجالات العرب في مجلس الاعيان لتحقيق التقارب فقط فاتصل عدد من الاحرار بالزهراوي وابدوا له عدم رضاهم عن تلك الحلول فابدى استعداده للاستقالة اذا كان في ذلك فائدة للعرب .

وعندما دخلت تركيا الحرب العالمية الاولى عين جمال باشا السفاح قائدا للجيش الرابع في سوريا فاخذ يكيد الاحرار العرب للايقاع بهم وكان اول مافعله ان أمر باعتقالهم واحالهم الى ديوان الحرب العرفي في عاليه .. وكان عبد الحميد الزهراوي من بينهم .

وسيق الاحرار الى المشنقة على دفعات . في بيروت ودمشق .

ولم تشرق شمس يوم ٦ ايار من عام ١٩١٦ على دمشق حتى كان حكم الاعدام قد نفذ بستة منهم . وفي مقدمتهم الشهيد عبد الحميد الزهراوي .

بين المؤلفات القيمة التي وضعها عبدالحميد الزهراوي كتابه الفريد الذي نشره بمصر باسم (خديجة ام المؤمنين) وهو مؤلف فتح فيه فتحا جديدا دل على توقد ذهنه وصفاء قلبه ، ودقة تفكيره ، وبلاغة تعبيره ، وعمق انسانيته وسعة معارفه اذ نحا فيه منحى المفكر الفيلسوف والعالم الناقد . ومن آيات هذا الكتاب ان فيه بر الابن بامه ، فقدمه الى والدته مكافأة لها واعترافاً بفضلها . وقال انني اعلن للملأ فضل جنسها واذكرهم بما نسوه من احترام حقوق هذا الجنس ولم اجد احسن طريقة الى هذه الغاية من شرح سيرة هذه السيدة (خديجة ام المؤمنين) التي هي احدى جداتها.

ومن آرائه الفكرية ايضا رسالة فلسفية تحليلية في الحب والبغض كما الف في النحو والبلاغة والمنطق. ووضع سفرا جليلا في امور الفقه .

لم ينس الوطن ابنه البار عبد الحميد الزهراوي فاحتفل بذكراه . وجاءت سيرته دراسات بطولة في كتابات رجال الفكر والمعرفة .

وهذا رئيس المجمع اللغوي بدمشق يقول فيه : لقد كانت لي صلة بالشهيد في المؤتمر العربي الاول بباريس ، وفي الاستانة ، فما والله عرفت فيه الا الاب المرشد للذين كانوا في سننا من الشبان ، وذلك في عمق تفكيره ، وحدة ذهنه ، ورحابة صدره ، وصدق وطنيته وسعة علمه وخبرته . ولقد فقدناه هو وشهداء الرعيل الاول . في زمن كانت امتنا في اشد الحاجة اليهم ، فقدموا ارواحهم الطاهرة فداء .

ان قافلة الامة العربية ظلت من بعدهم تسير في طريق الحرية والاستقلال حتى ادركت الامة كثيرا من امانيها ، وحتى بتنا نأمل بان يكون الجيل الجديد خير خلف لخير سلف ، يسير دوماً الى الامام متحملا كل تضحية في سبيل مجد امتنا وسؤددها .

ولئن غيب الثرى شهيد الامة عبد الحميد الزهراوي الا ان سيرته البطولية

ستظل في القلوب . حتى ان اطلال منزله في مدينة ابن الوليد باتت مزارا للاجيل الصاعد . يستعرض فيها مراحل النضال . للمعلم الكبير .

وحين يرتفع صوت المؤذن من اعلى المئذنة من مسجد الشهيد قائلا : الله اكبر الله اكبر . الله اكبر .

تتردد اصوات ابناء هذا الوطن العزيز قوله تعالى:

ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا ، بل احياء عند ربهم يرزقون .

هذه هي سيرة عبد الحميد الزهراوي . شهيد ايار العظيم ، ورائد كبير من رواد القومية العربية . كان سيفا مؤمنا في الدفاع عن حق العرب ، وسيفا متمردا في وجه اعداء العرب . خدم قضية امته بشرف . واوقف حياته على هذا . وكان الاستشهاد خاتمة حياته الحافلة . عاش عظيما ومات عظيما .

* * *

رفيق رزق سلوم



« الى من شغف بها قلبي ، وحبت اليها نفسي .. الى حبيبة المسيح وعشيقة فولتير .. الى من عانقتني وعانقتها، ومن ضمتني الى صدرها ، وضممتها ، اليك ايتها الحرية » ..

مولده ونموه : في يوم مشرق من ايام شهر آذار سنـــة ١٨٩١ ، وكانت مدينة حمص تحـــاول الابتسام مع الطبيعة الباسمة في مقتبل الربيع ، رغم ما هي عليه من الفقر والضغط بظل الحكم العثماني الاستبدادي الجائر .

في ذلك اليوم تعالت الزغاريد في منزل المواطن الحمصي موسى رزق سلوم ودخلت احداهن على رب المنزل وهو يجالس بعض الاصـــدقاء الزائرين تبشره بولادة طفل ذكر له بهي الطلعة ، وسيم الاشراقة ، فعظمت الفرحة وانتشر الخبر فوفد الاهل والاصدقاء من كل حدب وصوب يهنئون بالوليد الجديد الذي اسمـاه والده « رفيق » .

لم يكن احد يعلم شيئاً عن مصير ذلك الطفـل ، فالامر تحت تصرف علام الغيوب . وانما المشاعر الاجتماعية تبدت مغتبطة مبتهجة كـون الوليد ذكراً ينشأ بظل والده وينسج على منواله ويخلد ذكره ــ بعد عمر طويل ــ بما يؤديه للمجتمع من خدمات واياد بيضاء .

تغذى « رفيق » مع حليب امه على منبته وارومته العريقة رحيق الحميـــة واكسير صدق الطوية ، فحبا ، ودرج ، ونمـا . وكانت مواهبه ودلائل نجـابته تكبر في ذاته ، مرافقة تطوره الجسدي عاماً فعاماً .

وما ان بلغ الخامسة من العمر حتى ادخله والده احدى المدارس الابتدائية ينهل من معين المعرفة ، وغم شحه في ذلك العهد ما تيسر من علم وثقافة . ولم يمض على تلمذه وقت طويل ، حتى اكتشف به معلموه ذكاء خارقاً ، ونباهة نادرة ، ووعياً متألقاً يستوعب الدروس بسهولة بارعة فكاشفوا اهله بحقيقته .

وفي عام ١٩٠٤ وهو في الثالثة عشرة من العمر ، وكان قد انهى مرحلة الدراسة الابتدائية ارسله اهله الى المدرسة الاكليريكية الارثوذكسية في دير البلمند حيث بقي اربع سنوات كان الاول في صفه وبانتهاء سنته الرابعة نال شهادة المدرسة بتفوق ملحوظ ورجع الى حمص وكان ذلك فيمطلع صيف سنة ١٩٠٧ .

وكأني بالسنوات الاربع التي قضاها رفيق الشاب في جو رهباني تنسكي قد اثرت في نفسيته فمال الى العزلة والتزهد مما ادى الى ارتدائه ثوب الرهبنة وانتقل من منزل اهله الى دار المطرانية الارثوذكسية في حمص ليعيش حياة اكليريكية تحت رعاية سيادة مطران الطائفة .. الا انه لم يمكث سوى عام واحد .. كان خلاله يتلقى اللغة التركية على الاستاذ خالد افندي الحكيم الذي حبب اليه عالم العراك وبدل من ميله الى العزلة والانفراد فعدل عن الترهب ..

وفي مطلع عام ١٩٠٩ الدراسي ، التحق بالكلية الاميركية في بيروت ، فأتقن اللغة الانكليزية ، ووضع اول مؤلفاته وهو رواية (أمراض العصر الجديد) وكان له من العمر سبعة عشر عاماً ..

وهنا يجدر بنا التوقف قليلا عن سرد مراحل رفيق الدراسية لنضع امام القارىء كلمة الاهداء التي استهل بها روايته وهي : « الى من شغف قلبي بها ، وحبت اليها نفسي ، الى حبيبة المسيح وعشيقة فولتير .. الى من عانقتني وعانقتها ، ومن ضمتني الى صدرها ، وضممتها .. اليك ايتها الحرية ارفع روايتي هذه الصغيرة فتروي لك بعض ما شاهدته من جور الانسان ، وخبرته من اعماله الفظيعة التي أمسى عبداً لها ، فعلني بذلك احرك شعورك اللطيف ، واثير غيرتك .. »

أرأيت ايها القارىء الى هذا الاهداء ؟. وهل ترسمت لك روح رفيق الثورية ضد الظلم والاستبداد والاسترقاق والاستعباد ؟

هذا وفي صيف عام ١٩٠٩ عاد الى حمص فعرفه استاذه خالد الحكيم بالمرحوم

الشهيد عبد الحميد الزهراوي ، ومنذ ذلك الحين اخذت القضية الوطنيــة تشغل تفكيره . وبناء على مشورة الزهراوي سافر المترجم الى الاستانة ، في نهاية الصيف لدراسة الحقوق .

رفيق في الاستانة : وفي الاستانة احدى قواعد العثمانيين الكبرى ، اكب على الدروس واقرانه وراح في اوقات فراغه يدبج المقالات وينشرها في المقتطف والمهذب والمقتبس والمفيد وحمص وفي مجلة لسان العرب التي كان يصدرها المنتدى الادبي ، بالاضافة الى تحريره في جريدة الحضارة لصاحبها الشهيد الزهراوي والتي كانت تصدر في الاستانة باللغة العربية .

وخلال مدة اقامته هناك وقد امتدت الى عام ١٩١٤ ألف كتابه الاقتصادي الفريد « حياة البلاد في علم الاقتصاد » وكان اول كتاب بالعربية يتطرق الى هذا العلم وقد نشر منه بعض الفصول قبل طبعه كاملاً في جريدة الحضارة ولدى تقديمه الى المطبعة في حمص سنة ١٩١٢ اهداه الى استاذه في الوطنية ورفيقه في الاستشهاد عبد الحميد الزهراوي بهذه الكلمات :

ايها الفاضل ..

مهما تشعبت الجداول الصغيرة فالى البحر العظيم مرجعها ، ومهما انحدرت وتكسرت فمن الجبل الرفيع منبعها ومهما طالت الطريق ووعرت لايمكن لهــذا الجدول ان يستقل بنفسه فهو مربوط الطرفين ، رأسه في الجبــل ويداه في البحر .. اقدم لكم هذا الكتاب لانه مربوط الاصل بكم ، فلم يغض ماؤه الا بتشجيعكم وحضكم ثم فتحتم له طريقاً في جريدتكم الغراء ، فاستقى منـه قسم من ابناء الامة الكرام . والان اضم تلك الجرعات الصغيرة في هذا الكتاب الصغير لاديرها على ابناء وطني الغيورين ، فاقبلوا فائق احترامي وشكري نفع الله الامة والوطن بفضلكم وعلمكم واصلاحكم ..

« رفيق »

هذا ولم يقف به الانتاج الفكري عند هذا المقدار ، وانما الف كتاباً آخـر يقع بحوالي ٤٠٠ صفحة تحت عنوان (حقوق الدول) وقد نشر تباعاً في جريدة

المهذب دون ان يطبع على حدة ، وما زال الاصل في حوزة اهل الشهيد ، والذي نتمنى ان يخرج الى المكتبة العربية مادة غزيرة للاجيال .

ويجدر بنا ايضا ان نذكر ان للشهيد منظومات شعريه رائعة نظم معظمها في الاغراض الوطنية والقيت في مناسبات قومية عربية .

كما انه اولع بالموسيقى ، فاتقن العزف على القانون والعود والكمان ، وكان يحث اترابه على تعلم هذا الفن الجميل ليبتعدوا عن المسكر والتدخين والعمل المنكر .

وفي عام ١٩١٤ قبيل اندلاع نيران الحرب الكونية اجتاز الشهيد المرحلة النهائية من دراسة الحقوق متفوقاً على خمس مائة طالب وفي مراحل دراسته مابين حمص وبيروت والاستانة ، توفرت له معرفة اللغات التالية : الروسية واليونانية والانكليزية والافرنسية ناهيك عن اللغتين العربية والتركية اللتين الف فيها وخطب .

حياته السياسية : اننا نتجنى على شهيدنا اذا ما استرسلنا في عرض مراحل حياته السياسية فقد عرضنا في التوطئة الضغط على الحريات والعيون المبثوثة على كل حركة عربية تحررية في ذلك العهد الاستبدادي وذكرنا كيف انشئت المنظمات العربيه السرية وكيف ادت واجبها بتكتم شديد فمن خلال ماتقدم ندرك مدى نشاط الشهيد رفيق واخوانه الشهداء الابرار . ونذكر ايضا ان الشهيد المترجم كان نائب رئيس المنتدى الادبي بينما رئيسه كان الشهيد عبد الكريم قاسم الخليل ولزيادة الايضاح عن رسالة اعضاء النادي المذكور وفي طليعتهم رفيق رزق سلوم ، التي رمت الى ائتلاف العرب ـ من وراء الستار الادبي ـ وحماية حقوقهم، والمطالبة باستقلالهم ، وايقاظ الامة العربية التي كانت تغط في سبات عميق من جراء الاستعباد العثماني الذي كان على الاجواء العربية اربعة قرون متتالية .. نقول ان النادي كان يقوم باداء تمثيليات عربية منها رواية السموءل ، وكان الشهيد رفيق احد ابطالها والقى في مستهلها خطابا ـ بحضور بعض المسؤولين الاتراك ـ استهله بالبيتين التاليين من نظمه :

قبلت حد السيف قبلة عاشق وهتفت يا سلمى افرحي وتهللي
ان كان في موتي حياة ترتجى للعرب ، أقبل يا حمام وعجل

ولما خاضت تركيا غمار الحرب الكونية عام ١٩١٤ استدعي للجندية برتبة ضابط ، وكان أحد الضباط الذين اسسوا جمعية (العهد) على اثر افتضاح امر (الجمعية القحطانية) .. وفي ٢٧ ايلول من عام ١٩١٥ وشي به للسلطات التركية فالقي القبض عليه في بيت ابن عمه المرحوم انيس سلوم في دمشق ، وسيق الى عاليه حيث جرت محاكمته ، وقاسى الاهوال الشديدة ، كما شرحها في كتابه الاخير الى اهله ، ثم اعدم يوم ٦ ايار ١٩١٦ مع رفاقه الشهداء ، وكان له من العمر خمسة وعشرون عاما ، وهكذا كان اصغر شهداء ايار سناً !.

خليل مردم بك



«غدا الخليل أمثولة تحتذى، وسيرة تقرأ .. ولئن مضى، فذكراه باقية حية في قلوب معارفه ومحبيه وقارئي أدبه الرفيع الذي خلفه لنا تراثا خالداً»

ان مدرسة الملك الظاهر في دمشق.. شاهدالتاريخ باق الى يومنا هذا يروي لنا منذ تأسيسه في العام الستين بعد ستمائـة هجرية سير رجال العـلم والمعرفة والتحصيل من ابناء البلاد ..

وفي هذه القافلة يبرز اسم خليل مردم بك الذي درج في صفوفها، حتى اتم الخامسة عشر من عمره ... عندما فقد اباه .. ثم فقد امه بعد اربع سنوات فغدا في صدر حياته يتيم الاب والام يسير بين اشواك الدنيا حذرا قلقاً مترددا حييا، خجولاً، وكأن المصيبة طبعته بطابـع الصمت والسكوت ولازمه ذلك طوال حياته . ونحن نقدمه هنا كعلم من اعلام كفاحالفكر .. وقد ولد في منزل اسرته الكبير في زقاق فخر الرازي بدمشق حوالي سنة ١٨٩٥ .

وهو ابن المرحوم احمد مختار مردم بك ولم يكن له اخوة ذكور وانما كانت له خمس شقيقات فدفع به ابوه الى التعليم، وسلكه في مدارس ذلك الزمان .. فنشأ كما نشأ اقرانه ومضى بعد وفـاة والديه في اكمال تحصيله فأقبل على الحديد والفقـه .

وفي ارجاء الدار الشرقية الفسيحة ترعرعالفقيد متابعا بنشاط عجيب دراسة

الصرف والنحو والبلاغة ، فوقف على العربية وهو مايزال يزحف نحـــو الثالثة والعشرين من سنيه ، وراح يقرض الشعر يقلد القدمـــاء ويجري على سننهم حتى اصبحت له ملكة في الشعر فدار اسمه ولمع صيته وعمل في عام ١٩١٨ ميلادية بعد جلاء الاتراك مميزاً لديوان الرسائل العامــة ينقح مابين يديه من اوراق ويصلح في الكتب والتعابير والجمـــل ...

وترقى في مراتب الوظيفة حتى اواخر عام ٩١٩ حيث شهد بعينه تاريخا جديداً للامة العربية يكتب، فاهتز قلبه للامجاد وتفتحت نفسه .. وظل يذكر تلك الحقبة ويتغنى ببطولات امته وتاريخها . ويمجد اعمال ابطالها وشهدائها :

بأبي وامي الباذلـــين نفوسهم

من كل ثبت في الخطوب جنانـــه

افديهم بدمي وقــل لهم دمي

لكنه . . . . بجميلهم . . عرفانه

سفر القضية لم يزل غفلاً الى

ان خـــط بالدم منهـــم عنوانه

وفي عام ١٩٢٠ الف الفقيد الرابطة الادبية مع رفاقه سليم الجندي ، وشفيق جبري ، ونسيب شهاب ، وماري عجمي ، وفخري البارودي .

وكان قد استقال من وظيفته ، وتفرغ للادب وكان يجتمع مع رفاقه في القلم .

وفي عام ١٩٢٥ تقدم الفقيد برسالة عن شعراء الشام في القرن الثالث عشر الى المجتمع العلمي العربي بدمشق فانتخب عضواً فيه استنادا الى هذه الدراسة ...

وهكذا احتل الرجل الكبير مقعدا من مقاعـــد الخالدين ، وكانوا خلاصة الاعلام وسادة الثقافـــة والبيان ، ينظر اليهم العرب في كل اقطار على انهم حصن العربية وبيدهم تحرر اوثق مجلة علميه ولدت مع فجر الاستقلال العربي ومازالت الى اليوم تطيف على عالمنا كؤوس المعرفة الصافية .

ولما كان هذا المجمع مثالا ناجحاً فقد احتذاه علماء القاهرة وبغداد ..

وفي مجلة المجمع العلمي نشر الفقيد مقالات ودواوين ودراسات تنم على حذق وفهم وحب عميق للشعر الاصيل .

وكان يؤمن بأن النضال عليه حقا فعاش حياتــــه كلها يعمل للادب ويتغنى بالثورة . ويدعو الشعب لرد الطغيان ورفع الظلم . فكانت دمشق تردد قصائده وتتغنى بها ... واشهر قصائده التي قالهـــا في يوم الثورة العربية .. فطاردتــه السلطات الفرنسية فغادر الى لبنان ومنها الى الاسكندرية ثم سافـــر الى لندن حيث انتسب الى جامعة كامبردج حيث ظل اربع سنوات يدرس الاداب الانكليزية حتى حصل على شهادة تعادل الدكتوراه وعاد الى وطنه سنة ١٩٢٩ يواصل جهاده الفكري مع رئيس المجمع الاسبق العلامــة المرحوم محمد كردعلي حيث انتخب اميناً عام ١٩٤١ .

وبدأت ثمار هذا الجهاد الفكري الطويل تتتالى ومن كتبه المخطوطة :

دروس في الانشاء الاعرابيات واعيان القرن الثالث عشر الهجري والبحتري وشعر الشاميين ، وائمــة الادب ، وتقارير سياسية كتبها عندما كان وزيراً مفوضاً في العراق وهي الى جانب قيمتها السياسية تحمــل قيمة المعالجـــة الفكرية التي تتعمق الامور والاحداث

والى جانب هــذه المخطوطات لخليل مردم بك عدد من المؤلفات المطبوعة واكثرها تحقيق في شعراء الاسلاف ومنها :

شعراء الشام و (ائمة الادب) . و (الجاحظ) وابن المقفع ، وابن العميد والصاحب بن عباد ، والفرزدق ، ودراسات عن علي بن الجهم ، وابن عنين وابن حيوس وابن الخياط ، واخرين غيرهم ..

وانتخب الفقيد عام ١٩٤٨ عضواً في مجمع اللغة العربية في مصر وفي عـــام ١٩٤٩ في المجمع العراقي ، وفي عام ١٩٥٢ في مجمع البحر المتوسط في باليرمو .. وفي عام ٩٥٨ في مجمع العلوم السوفييتية .

كما عين وزيراً للمعارف عام ١٩٤٢ ، ووزيراً للخارجية عام ١٩٥٤ .

وفي عام ١٩٥٣ انتخب رئيسا للمجمع العلمي العربي بدمشق وظل في الرئاسة ست سنوات حيث فجأه المرض في عام ١٩٥٩ ومات في العام نفسه .

وفي داره لاتزال حاجياته واماكن راحته وعمله وجلوسه كما هي ..

كان يصعد كل مساء الى الطابق العلوي لقضاء فترة السهرة والكتابة قبل النوم ..

ان غرفة نومه . باقية على حالها ، تسائل السكون والزمن عن رفيقها الذي غاب ، كلها تسأل عنه . العباءة . الطربوش . الساعة . القلم الكتاب. لحقيبة خزانة الملابس .

وفي غرفة جلوسه كان يجالس الخلص من اصدقائه ويتابع اخبار الدنيا من جهاز الراديو . كان رحمه الله صورة للرقة في حديثه ومجلسه . ما تنقطع بشاشته . وكان لسانه ينطلق دائما في خير الناس ونفع الادب .وكانت عيناه دائما تشعان بنور النبل والحياء والتواضع والرصانة .

وقد وضع الخليل اكثر مؤلفاته في القاعة التي كان يقضي فيها سهراته مع المطالعة والتحبير ،كان مخلصا للفكرة التي يكتبها .. وكان يعود الى الحقائق والارقام في دراساته حتى جاءت غنية متكاملة .

وفي العصاري كان يقضي ساعة من الراحة ، وكانت راحته في التأمل والمطالعة وهو يحب طراز البيوت الشرقية العربية .

وفي موعد يومي غالبا ما يكون في السابعة مساء ، يصعد الى الطابق الثاني حيث يجلس في ركن معهود لم يبدله ابدا ، ويشرب الشاي انها عادة ظلت تلازمه طيلة سنوات حياته الاخيرة .. كان يجد لذة كبيرة في الاسترخاء لمدة ساعة وشرب الشاي قبل تناول طعام العشاء والصعود الى غرفة العمل والكتابة.

واليوم .. وقد غاب الخليل .. تظل هذه الدار في ارتقاب دائم .. انها تروي باغصانها ونوافير مياهها ودالياتها شيئا من سيرة الرجل الكبير الذي كان يتفيأ ظلالها ويحنو عليها ويعني بها ثم تركها فجأة .. دون ان يعد بالعودة..

ولكن خليل مردم بك سيظل حيا بيننا . هو حي بما ترك لنا من محفوظات ومطبوعات ، وهو في الوقفيات الثمينة التي قدمت هدية للمجمع العلمي وثمنها يقدر بخمسة عشر الف ليرة سورية .

وهو في مخطوط قصائده الشعرية التي طبعت بعد وفاته في ديوان ضخم باشراف ولده الشاعر عدنان مردم بك ..

وله نشيد على افواه الجيل العربي في سورية وهو يردد النشيدالسوري الذي نظمه الفقيد منذ ثلاثين عاما تقريبا واصبح نشيد الوطن القومي .

ان الوطن الذي غناه الخليل في شعره ، لا ينسى فضله على ادبنا وتراثنـــا الفكري ، ولهـــذا فأبناؤه اليوم يستقبلون كل صبـــاح من صباحات ايامهم بنشيده الكبير .. النشيد السوري

نشيد حماة الديار .

وفي اخر ايامه ظل على سرير المرض بضعـــة شهور .. ولعل هذا الاجهاد من غير راحه بعد بلوغه السنين قد اضر بجسمه فاقعده عن السعي الى المجمع . وفي ضحى اليوم الحـادي والعشرين من تموز عام ١٩٥٩ ، طوى الموت انموذجا رائعا من رجال البيان لصدر هذا العصر في ادبه وانتاجه فسرى نعيه في الاقطار العربيـــة ، وجزع الصحب ، وانحسر علم في الشام ظل مرفوعـــا خفاقا منذ اهل القرن .

وحمل نعشه الى قاعة المجمع العلمي تحية اخيرة ووداعـــا كريما . وسار وراءه عليه القوم ورجال الحكم بقلوب واجفة ، وعيـــون دامعة فقـــد غدا الخليل امثولة تحتذى وسيرة تقرأ .

وحمل على الاكف . وذرفت دمشق ، بل امة العرب ، دموعا سخية وسار الموكب الى باب الجابية تبكيه القلوب قبل العيون . وفي مقبرة العائلة ا لمنانيـة ووري في مثواه الاخير ..

مضى الخليل . وذكراه باقية حية في قلوب معارفه ومحبيه وقارئي ادبـــه الرفيع الذي خلفه لنا تراثا خالدا ،

الأمير عبد القادر الجزائري



« كان لشعبنا العربي في الجزائر خير قدوة . وكانت ثورة الجزائر امتداداً لنفير الجهاد الذي اعلنه منذ اكثر من قرن كامل ».

ملحمة الكفاح البطولي ، التي ارتفع لهيبها المقدس في ارض الجزائر العربية الطاهرة ليدفع عن الربوع الخضراء ليل المأساة ويعيد الحياة حرة ، كريمة معطاء ...

هذه الملحمة ، تمتد جذورها بعيداً في نفوس عرب الجزائر وهم ، جميعهم في المعركة يدفعون ضريبة الدم الذكي ويقدمون القرابين رخيصة على مذبح الحرية ..

وفي غمار هذه الملحمة البطولية الخالدة ، يرتفع زند ثائر ...يتحدى الموت والدخيل وقوى النار والحديد ، ويكتب في سجل الزمان سيرة التضحية والجهاد سيرة بطل عظيم شهر في وجه العدو سيف الايمان ليأخذ الحرية لشعبه الذي ابت عليه كرامته ذل الاحتلال واستكانة العبودية .

هذا الزند الثائر الذي كان قدوة الكفاح ما وهن يوماً عن الطعان طيلة ست عشرة سنة متواصلة ... هذا الثائر هو : الامير عبد القادر الجزائري .

في قرية القيطنة الواقعة على وادي الحمام من اعمال وهران ولد الامير عبد القادر ناصر الدين بن الامير محي الدين الحسيني ، يوم الجمعة الثالث والعشرين

من رجب سنة اثنتين وعشرين ومائتين والف هجرية و ١٨٠٧ ميلادية .

اخذ الفقه والثقافة والادب عن والده واساتذة من علماء بلده .. وبعد اربعة عشر عاماً انتقل الى وهران حيث استكمل علمه ودرس الفقه والاصول وعلوم اللغة والحديث والمصطلح ، وحفظ اكثر صحيح البخاري وبرع في علوم الشريعة والحقيقة والف فيها

في سن الرابعة والعشرين بدأ نضاله السياسي بعـــد ان تسلم الامارة وهو زاهدافيها تحمل الامانة باخلاص ونظم امور البلاد الداخلية كلها .

وعقد معاهدة الجيوش الفرنسية الغازية الى حين ، وحاول الاتصال بالعالم الخارجي لتمكين دولته الناشئة ، فخافت فرنسة ونقضت المعاهدة . وهاجمته .

قابل العنف بعنف أشد .. والتحم القتال لا يتراخى حتى يشتد وما زالت الحرب قائمة ستة عشر عاماً ، لم يدخر خلالها وسعاً للدفاع عن حـــق شعبه في الحياة الكريمة الحرة .

وبذل من المال والارواح ما لا طاقة لدولة راسخة ببذله .. حتى اعيى في جهاده الغزاة .

وما استسلم حتى استنفد آخر قطرة من العتاد وما تفعل الصدور العاريـــة من الفقر ، والاكف الخاوية من السلاح ؟ والقلة الصابرة على البلاء والجوع والخيانة امام مئات الالوف من الجيوش المزودة باحدث السلاح .

وحمل الامير عبد القادر على بارجة الى فرنسة وسجن في قصر بـ(امبـواز) خمس سنوات ، ثم اطلق سراحه وارسل الى استانبول .

واستقر في مدينة بروسة من اعمال الدولة العثمانية مدة عامين ونصف العام ارتحل بعدها الى دمشق .

اتخذ الامير عبد القادر الجزائري من دمشق الفيحاء سكناً له ولعائلته وجعلها منطلقه في رحلاته المتعددة الى القدس ومصـــر ومكة المكرمة واوروبا واستانبول .

تجمعت لدى الامير عبد القادر العلوم النظرية والتأملية فكان من اساطين الفكر وافذاذ العلماء القديرين على جانب كبير من سعة الادراك وحسن التفهم لكبريات المشاكل ، وهذا ما جعله يجيب بنفسه على القضايا والنوازل التي كانت ترد عليه من كبار علماء الاسلام ومفكري الغرب .

وللامير عبد القادر مؤلفات عدة ، ورسائل مطولة ، ومن بين مؤلفاته :

(المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الاسلام من اهل الباطل والالحاد) وهو رسالة مطولة كتبها اثناء وجوده في فرنسة .. وله ايضاً (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) وهي رسالة مطولة كتبها للاكاديمية الفرنسية عندما انتخبته عضواً فيها .

اما كتابه الاشهر فهو (المواقف) وهو كتاب في علم التصوف .. وله أخيراً تعليقات على حاشية جده عبد القادر بن خدة وهي في علم الكلام .

وكان يوزع اراءه بوساطة مناشير خاصة تحمل خاتمه .. الى مختلف الاشخاص والامصار ومن رسائله الشهيرة رسالته الى خصمه الجنرال بيجو حيث قال له في مطلعها :

« اعلموا انني بعونه تعالى ، وقوته ، لااخشى كثرتكم ولا اعتبر قوتكم ، لعلمي انكم لاتضروني بشيء الا ان يضرني الله به » .

وفي سجل الذكريات تترى امامنا صور تمثل شيئا من آثار المجاهد الكبير. فهذه رايته مكتوب عليها ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين نصر من الله وفتح قريب.

وهذا خاتمه الرسمي الذي كان يمهر به رسائله .

وهذه الحقيبة الجلدية فكان يودعها اوراقه الخاصة .. وهذا سيف الكفاح ورفيق الجهاد .

وفي طريقه الى الحج ، مر بمصر ، والتقطت له صورة تذكارية بين الخديوي اسماعيل وفردينانددي ليسيبس المهندس الذي شق قناة السويس وكان ذلك عام ١٨٦٣ .

كان الامير عبد القادر الجزائري معتدل الطول مليء الجسم ، يتوج رأسه

شعر كث ، مختضب بالسواد ، يبرز من بين عينيه الشهلاوين انف اقنى يطل على فم مطبق تموج فيه ابتسامة تطفح بالحنان .

وكان يحب الخيل ، وظل يعني بها حتى آخر ايام حياته . وكان لا يسير بها الامزعا وارقالا . وقد انجب عشرة اولاد .

اما ملابسه فكانت تتألف من : الصدرية أو (البدعية) كما يسمونها في الجزائر . وفوق الصدرية كان الامير يرتدي الدامر المطرز بالخيوط الحريرية . وهو من المصنوعات الجزائرية الوطنية ، مصنوعة من الصوف المغزول .

أما القسم الثالث من الثياب فهو الرداء ويسمى (الجبة) كان يرتديها فوق كل الملابس ، اكمامها موشاة بالمخمل الازرق المطرز بالقصب ، وكان الامير يربطها الى كتفه ايام السلم والراحة ويرتدي فوقها البرنس الاسود في القتال .

اما آثار الفقيد ، اسلحته المختلفة ، ملابسه ، صوره ، مقتنياته فقد ضمتها كلها قاعة الاستقبال في الدار التي كان يقطنها في دمشق .

كان الامير عبد القادر الجزائري بعد ان اتخذ دمشق موطنا لاقامته يقطن في دار كبيرة واسعة في زقاق النقيب في حي العمارة ، نقشت على جدران غرفها العديدة مختلف النقوش العربية المطلية بالذهب الخالص . كانت قاعات هذه الدار آية من آيات الفن العربي لما فيها من زخرفات دقيقة قل ان يوجد مثيلا لها في كثير من القصور .

كان الفقيد يصحو من نومه قبل الفجر فيصلي الصبح حاضرا ، ويقرأ ورده المعتاد بصوت هادىء مسموع ثم يضطجع فيغفو الى مابعد بزوغ الشمس ، وينهض ليملأ نهاره بعمل مستمر ، لاينقطع لحظة واحدة عن عمل يؤديه أو كتاب يستفيد منه أو مؤلف يعده أو قصيدة ينظمها ، او مباراة بالشطرنج مع احد اخصائه.

حتى ان الفقيد كان يجيــــد استخدام الابرة في الخياطة ايام السلم اجادته استخدام السيف زمن الحرب .

كان لايهدأ ولا يفتر عن العمل الجدي طوال يومه حتى يصلي العشاء ويذهب الى فراشه ليستريح من عناء العمل .

لقد كان الامير عبد القادر حاد الذكاء ،عجيب الحافظة بارعاً في تصريف شتى الامور شديد التمسك بدينه ، حافظا عهوده ووعوده ، عنيفاً في الدفاع عما يعتقد انه حق . فيه شيء عن عنجهية البادية وعنادها على ليونة في القلب وصفاء سريرة مطلق ..

وكان شديد الاعجاب بامه ، متعلقا بها حتى انه لازمها في حله وترحاله في السلم والحرب . وارفقها معه الى الاسر واعادها الى استانبول وبروسيا ودمشق .

ويوم اختارها الباري تعالى الى جواره في عام ١٨٥٨ ميلادية . حزن عليها حزنا مؤلما ، وتوقف في الطريق مرات متعددة من مقبرة الدحداح حيث ووريت مقرها الاخير الى منزله في العمارة ذهولا ..

وفي جنبات الدار الفسيحة كان يطلق لتفكيره العنان منسرحاً في تأملاته يبحث عن الحقيقة .. عما وراء الشريعة من التصوف الرمزي ، او يحبر رسالة من رسائله المطولات . حتى اذا اقبل موعد الصلاة قام من مجلسه ليقف بين يدي الله يؤدي الفريضة .

وليست هذه الدار هي الوحيدة التي بقيت من آثاره . بل هناك القصر الذي كان يقطنه في دمر . تتردد في جنباته الخالية اصداء نشيد النضال والكفاح الثوري للملحمة التي حققها في حياته .

وقد دفن البطل الكبير في مقام الشيخ محيي الدين العربي في حي الشيخ محيي الدين في دمشق حيث يؤمه الزوار من كل حدب وصوب في دنيا العرب والعالم يقرأون الفاتحة عن روحه الطاهرة .

ومقام الامير عبد القادر مصنوع من الخشب وقد نقشت عليه سيرة حياته ، ويقف امامه الانسان خاشعاً متأملا ويستعرض مع الحروف المنقوشة ابيات الملحمة البطولية التي صنعها الراحل الكبير والبطل العظيم وعلى الضريح نقرأ :

هنا بطل من ابطال الاسلام وعلم من اعلام الهدى ، عالم الامراء ، وامير العلماء صاحب المواقف الامير ابو المكارم ناصر الدين السيد عبدالقادر بن محيي الدين ولد في القيطنة من اعمال وهران في الجزائر يوم الجمعة الثالث والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين ومائتين والف »

ولم يكن الامير عبد القادر الجزائري ذلـــك الفارس الثائر في ساح الوغي فحسب. بل كان ايضا من فرسان الشعر في عصره .. طرق جميع ابواب الشعر من فخر وغزل ومساجلات وتصوف . . وله ديوان مطبوع حققه الدكتور حقي

هذه هي سيرة التضحية والجهاد ، سيرة بطل عربي عظيم شهر في وجه العدو الغاصب ، سيف الايمان ليأخذ الحرية لشعبه ، ما وهن يوما عن الطعان وابلى في ساحة الجهاد البلاء الحسن.وكان لشعبنا العربي في الجزائر خير قدوة وكانت ثورة الجزائـر امتداداً لنفير الجهاد الذي اعلنه الامير عبد القادر الجزائري منذ اكثر من قرن كامل مسجلا في تاريخ الامة العربية اشرف صفحات الجهاد ... ودخل التاريخ من بابه الامجـــد .



عمر المختار

« عندما نقدم هنا سيرة الشهيد عمر المختار فلأننا نؤمن بان ابطال الكفاح العربي هم في صف واحد من المعركة. ان كانوا في ليبيا او في سورية او الجزائر او عمان . فقضية العرب واحده من الخليج الى المحيط ، وهدفهم الاعز هو تحرير بلادهم ووحدة امتهم » .

بدأت ايطاليا في مستهل القرن العشرين توثق صلاتها الاقتصادية بالشمال الافريقي في تونس وطرابلس وبرقة وكان بعض رعاياها قد هاجروا الى هناك وانشأ « بنك روما » فرعا له في طرابلس وبرقة سنة ١٩٠٥ .. يقدم القروض ويستثمر الاموال كما انشأت ايطاليا في بنغازي مكتبا للبريد كان الايطاليون يرسلون بواسطته مايريدون من رسائل وتقارير بغير مراقبة ، وانشأت ايضا بعض المدارس لنشر الثقافة الايطالية واهم من ذلك ان ايطاليا اخذت ترسل البعثات المختلفة عن طريق « الجمعية الايطالية للكشوف الجغرافية » كان منها بعثة اشترك فيها الكونت (سفورزا) للتفتيش عن الفوسفات ، انضم اليها بعض الضباط ، فاستطاعوا ان يقوموا بوضع المصورات والخرائط الحربية .

كان الصراع على اشده بين الدول الاستعمارية من اجل السيطرة على مناطق « الشمال الافريقي » ، وقد انتهزت فرصة انهيار الامبراطورية التركية العجوز فاخذت كل منها وخاصة فرنسا وانكلترا والمانيـــا واخيرا ايطاليا تمد نفوذها الاقتصادي في اول الامر . ثم السياسي ثم اخيرا تقبض بقواتها العسكرية لتحمي بهـــا مصالحها .

وكان التنافس في هذا الميدان بين بريطانيا وفرنسا قد بلغ اشده في مصر واستطاعت بريطانيا ان تحتل القطر وتمحى النفوذ الفرنسي ، ومن جهة اخرى احتلت فرنسا تونس باتفاق مع بريطانيا على ان تحتل بريطانيا قبرص . وهكذا وجدت ايطاليا نفسها معزولة في وسط البحر المتوسط ، فهي قدرفضت الاشتراك في مغامرة احتلال مصر وفقدت قسما من شمال افريقيا وهو منطقة نفوذها المواجهة لها .. ولم يبق أمامها غير طرابلس وبرقة (ليبيا) ولكنها تحولت لفترة قصيرة بمطامعها الى البحر الاحمر .

ولكن الحوادث اسرعت ، وتطورت الامور وذلك اثناء الازمة المراكشية وبعدها . ثم احتلال الفرنسيين لمدينة فاس سنة ١٩١١ . فانتفضت اطماع ايطاليا فيما تبقى من الشمال الافريقي . ولم يبق سوى ليبيا . فبدأت ايطاليا مساعيها لدى الدول . وحصلت على موافقة بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية والمانيا، ووافقت النمسا بشرط الا تتعدى العمليات الحربية شمال افريقيا .

وكانت تركيا — وليبيا احدى ولاياتها في ذلك الوقت — مشغولة بسوء الحالة في الداخل ، وثورة القوميات التي تضمها امبراطوريتها العجوز .

وكان يحكم ليبيا من قبل الحكومة التركية وال تركي ، وتنتشر فيها بعض الحاميات الحربية ، قليلة العدد ناقصة العتاد .

اعدت ايطاليا العدة . وارسلت انذارا الى (الباب العالي) في ٢٧ أيلول سنة ١٩١١ ، مدعية ادعاءات الاستعمار المعتادة والتي كان يتخذها دائما الذريعة الظاهرة لعدوانه ، واحتلاله للمناطق التي يرغب فيها .

فقد ادعت ايطاليا ان طرابلس وبرقة يسودهما سوء النظام ، وطالبت (الباب العالي)الاهتمام بالولاية كما ان لها مصالح حربية . وطرابلس مهمة لها لقربها منها ، كما ان الدولة العثمانية تتجاهل رغائب الايطاليين في طرابلس وتضطهدهم . وعلى ذلك قررت ايطاليا احتلال (ليبيا) ، وعلى الخلافة العثمانية تسهيل ذلك . ومدة الانذار ٢٤ ساعة . وردت تركيا ردا متخاذلا محاولة فيه ان تتلمس الاعذار لنفسها ، كما انها لم تقف في سبيل رؤوس الاموال الايطالية » في ترقية شؤون

الولاية . وتطلب من ايطاليا - بطبيعة الحال - بهذا الرد ، بل سلم ممثلها مساء ٢٩ ايلول سنة ١٩١١ اعلانا بالحرب الى « الباب العالي » .

بدأ الغزو الايطالي . وكان على الشعب الليبي ان يواجهه بمفرده . فالقوة التركية قليلة جدا ، وموزعة . وعتادها لايذكر . ولم يكن الغزو رغم ذلك سهلا بالنسبة للقوات المعتدية اذ بدأت مقاومة الشعب الليبي من اول لحظة . وارتفعت صيحة الجهاد . وحث شيوخ القبائل عليه ، وبدأ الاشتباك مع الايطاليين ساعة نزولهم .

واستمر الاسطول الايطالي يضرب مدينتي طرابلس ، وبنغازي . ثم قام الجنود باحتلالها . وخرجت القوة العثمانية ، والمجاهدون الوطنيون الى ضواحي المدينتين حيث لاتصلهم قذائف المدافع ، وبدأوا يقيمون خطوط الدفاع وكونوا جبهة حالت دون تقدم العدو سنوات عديدة .

في هذه الفترة من بداية الكفاح انبثقت امكانية صلبة بدأت تأخذ دورها في قيادة الجهـــاد .. نبتت في صحراء برقة .. في مجتمع عربي ، له مقوماته وتمرسه بالكفاح وابائه الخضوع لأي نفر مهما كانت قوته .

كان عمر المختار شيخاً على « زاوية القصور » بالجبـل الاخضر قرب « المرج » وعند ما بدأ الاسطول الايطالي يضرب بنغازي كان في مقدمة الذاهبين للجهـاد على رأس قبيلته التي يرأسها ، وبدأ يجمع الحشود ويحث على النضال واستمر جهاده طيلة هذه المرحلة حتى اعلنت « المعاهدة » بين تركيا وايطاليا والتي قابلهـا جميع المجاهدين وعلى رأسهم عمر المختار بالتجاهل والكراهية كانوا ناقمين على تركيا التي بدأت سحب جنودها بمعداتهم بعد ان عقدت المعاهدة ، فوقف المجاهدون في طريقهم ، وحاولوا منعهم ثم حاولوا اخـذ سلاحهم ولكن « الترك » ابوا ذلك فـكانت بينهم مناوشات ومصادمات قتل فيها الكثير من الطرفين ، ثم ادركهم عمر المختار ، واطفأ جذوة الحقد في نفوس المجاهدين ، وترك الشرذمة الهاربة تأخـذ طريقها الى الحدود المصرية .

كان يملأ اذهان المجاهدين ووجدانهم واقع مرير لما يعـــانيه الشعب من جور الايطاليين ووحشيتهم فلم تكد تمر ايام على نزولهم في طرابلس حتى قتلوا في ناحية المنشية حوالي سبعة آلاف نسمة غير ما عذبوا والقوا في السجون ، واباح الجنرال

« كانيفا » قائد احدى ناحية المشية ثلاثة أيام لجنوده ، ولم تكن هذه الواقعة امراً شاذاً بل كانت واحدة من حوادث لا حصر لها شهد بها مراسلو الصحف الاوربية الذين جاءوا مع الحملة الايطالية . ومما قاله « فرانسوا ماكولا » الصحفي الانكليزي : « أبيت البقاء مع جيش لا هم له الا ارتكاب جرائم القتل ، وان ما رأيته من المذابح وترك النساء المريضات العربيات اولادهن يعانين سكرات الموت على قارعة الطريق .

ومما قاله الصحفي الالماني « فرر جوتبرج » : انه لم يفعل جيش مع عدوه من انواع الغدر والخيانة ما فعله الطليان بطرابلس ، فقد كان الجنرال « كانيفا » يستهين بكل قانون حربي ويأمر بقتل جميع الاسرى سواء قبض عليهم في الحرب أم في بيوتهم .. »

ومما ذكره المستر « ارنست بنيت » ان جرائم الجنرال « كانيفا » الدموية ستبقى من الذكريات الأليمة في نفوس العالم الاسلامي . وستتناقلها الأجيال في اشمئزاز وسخط . عن هذه المذابح الوحشية واعمال الجبن .

وتفنن الطليان في ابتداع وسائل التعذيب والاعتداء فقد روى انهم اخرجوا ستة عشر شيخاً من مشايخ القبائل واصعدوهم في طيارات ثم القوهم منها على مشهد من اهلهم .. كما يروى انهم ربطوا شيخين آخرين بين سيارتين اندفعتا في اتجاهين مضادين فتقطع جسداهما ارباً امام قبيلتها .

رغم ما قام به الايطاليون من اعمال وحشية .. من قتلهم للنفوس البريئة وتحطيمهم للبيوت الامنة وانتهاكهم للاعراض .. رغم ذلك فان قائد حملتهم اصدر منشورا مملوءا بالخداع والتضليل والمداهنة جاء فيه .

« الى عرب طرابلس .. ماذا يصدكم عن القدوم الينا . اما تهمكم الصلاة في الجوامع والراحة في البيوت انتم وعائلاتكم نحن اناس اصحاب دين ومن اهل الكتاب . واحرار واعلموا ان دولة ايطاليا المنظمة قد اصبحت لكم بمقام الوالد بعد ان اخذت « امكم » طرابلس الغرب .

استمر عمر المختار في تجميع المجاهدين وتوحيد صفوفهم والعمل يدا واحدة مع ابطال القطاع الغربي .. ورغم المفاوضات الكثيرة التي قامت بين الايطاليين

والاتراك في اول الامر . ثم بعد ذلك بين الايطاليين والانكليز .. اثناء الحرب العالمية الاولى .. ثم بين الايطاليين والاتراك والانكليز .. رغم ذلك فان عمر المختار كان مستمراً في المقاومة وفي الحصول على المعونة . والامدادات الحربية. ساعيا بكل قواه في تركيز نقط دفاعية وخاصة في الجبل الاخضر .

خاض المختار معارك كثيرة كان صوته يرعب العدو واسمه مثار فزعهم طيلة فترة جهاده ، نذكر منها معركة « بئر الغبي » ومعركتي البريقة وبلال ومعركة « حردس » و « الحيران » و « كرسة » .

وكان المجاهدون يغنمون من هذه المعارك عتادهم ومؤنهم ، غير مايقضون عليه من عساكر العدو الذي يبلغ عدد من يصرعونهم في كثير من المعارك ألوفا.

ورغم كثرة الايطاليين ، وقوتهم فانهم لم ينجحوا في الحد من حركةالمقاومة التي يقودها عمر المختار التي استمرت تشن الغارات على مواقعهم مما ارغمهم على الخروج منها ، واشتبكوا في معارك استمرت يومين ، كان من نتيجتهاان ابيدت القوات الايطالية عن آخرها .

ولكن المختار استمر في كفاحه، وبدأ يستغل حرب العصابات ضد جيوشهم ومراكزهم الحربية متجنبا الاصطدام بقوات كبيرة تفوقه في العدة والعتاد .. ونجحت خطته نجاحاً كبيراً واشتبك مع الطليان في معارك بلغت تعدادها ٢٦٣ معركة في مدة عشرين شهراً . وكان اهمها معركة « كرسه » التي صرع فيها من جنود العدو ٥٠٠ قتيل منهم ماجور وثلاثة ضباط . .

ولكن الخيانة كانت تلعب دورها لفرض القضاء على هذا الطود الصلب . .
وخرج عمر المختار في يوم من الايام كعادته لاستكشاف مواقع العدو .. ولكن خبر خروجه وصل الى الاعداء عن طريق احد الخونة فأعدوا له كمينا . . احاط به من جميع الجهات قاوم اثر وقوعه فيه هو واصحابه مقاومة باسلة حتى سقط من فوق حصانه .. ورآه احد الجند العرب كان الايطاليون قد قبضوا عليه قبلا . وتم اسره وارسل الى بني غازي عن طريق البحر .. خوفا من ارساله بطرق البر ان يخلصه اصحابه .

وأقام المستعمرون المحكمة « الطائرة » على وجه السرعة وهي المحكمة في تعقد في كل مكان وفي كل وقت .. تواجه الانسان وتقرأ اسمه وتسرد اتهاماته ثم ينطق حكم الاعدام .

وواجه البطل المحكمة ، ونطق وهو يواجهها كلمات بسيطة هادئة..تدل على عدم اعترافه بهذه المحكمة ومن فيها ومن يرأسها : « الحكم لله وحده » قالها بصوت جهوري رغم شيخوخته ووهنه .

وبدأت المحكمة تستجوبه .. فوجهت اليه عدة اسئلة .. هي : هـل انت رئيس الثوار ؟ ، وهل حاربت دولة ايطاليا ؟ وهـل قتلت الجنود الذين وضعوا لحراسة العمال الايطاليين . ؟

واجاب على جميع الاسئلة بكلمة « نعم » .

وصدر الحكم باعدام البطل شنقا وجيء به الى ساحة الاعـدام . هادىء الوجه ، مطمئن الضمير . وصعد درج المشنقة في هدوء ... وبـدأ الايطاليون يضربون الدفوف ويثيرون الضوضاء خوفاً من ان ينطق كلمة تسري بين المجاهدين بمثابة قوة روحية تدفعهم .. ولكنه لم يقل سوى كلمة بسيطة هادئـة سمعها من كانوا قريبا منه « ياايتها النفس المطمئنة » .. واتم الجلاد مهمته وصعدت روح البطـل .

ولكن هل فترت المقاومة .. لابل استمرت عنيفة قوية لفترة بعد استشهاد عمر المختار يقودهـا خليفته « يوسف بورحيل » حتى ضيق الايطاليون عليهم فقرروا الاتجاه الى مصر .. وبينما هم في طريقهم فاجأتهم قوة من الجيش الايطالي استمروا يقاومونها بسلاحهم وهم داخل مغارة .. وعندما سكت دوي الرصاص دخل قائد الفرقة ليجد اربع جثث لم تزل البنادق حامية في قبضة ايديها .

ويستمر الشعب الليبي في كفاحـه في اصرار متخذا من سيرة كفاح البطل عمر المختار طريقا واضحا يستهديه . ودلالة على مافيه من امكانيات كفاحية ذات طاقات تملك ان تمد حياتها بالدماء .. والاصرار على حياة كريمة حرة .

الأمير عارف الشهابي



« كان من الاعمال البارزة للشهيد مشاركته الشبان الذين كانوا يدرسون في باريس ، في تأسيس جمعية الفتاة العربية السرية ، وهي الجمعية القومية التي لم يستطع السفاح جمال باشا كشف امرها، والتي كان حزب الاستقلال مظهراً لها بعد الحرب العالمية الاولى »

هو عارف بن محمد سعيد ، من الاسرة الشهابية ، ولد في اوائل عام ١٨٨٩ في حاصبيا التي كانت دائماً تابعة لدمشق هي وراشيا وبعلبك والبقاع ، حتى فصلها الفرنسيون سنة ١٩٢٠ وضموها الى لبنان .

درس الفقيد الدروس التجهيزية في « مكتب عنبر » الشهير بدمشق . وكان من رفاقه في تلك المدرسة الاستاذ العلامة محب الدين الخطيب والطبيبان الشهيدان صالح قنباز وصلاح الدين القاسمي وغيرهم . ثم انتقل الى الاستانة حيث دخل المدرسة الملكية ومدرسة الحقوق وحصل على شهادتيها ، وعاد الى دمشق .

ويجهل معظم ابناء الجيل الحاضر ان تلاميذ « مكتب عنبر » الملمح اليهم ورفاقا لهم الفوا منذ سنة ١٩٠٣ في دمشق حلقة صغيرة كان افرادها ، وهم شبان في ميعة الصبا ، يترددون على حلقة الشيخ طاهر الجزائري ؛ ويصغون الى ما كان يدور فيها من احاديث ومحاورات في اللغة العربية وقواعدها وادابها وفي حضارة العرب والاسلام ، وفي التراث العلمي العظيم من المخطوطات التي خلفها الاجداد ، وفي الجهل الضارب اطنابه بالبلاد العربية ، وفي وسائل رفع مستوى التفكير والتعليم .

وكانت حلقة الشيخ طاهر تسمى الحلقة الكبيرة ، وكان من رجالاتها علماء مصلحون وادباء وسياسيون معروفون مثل الشيخ جمال الدين القاسمي ، والشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ سليم البخاري ورفيق العظم ومحمد كرد علي وفارس الخوري وعبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي وعبد الوهاب المليحي « الانكليزي » وعبد الرحمن الشهبندر وسليم الجزائري وجميعهم انتقلوا الى رحمة الله .

وسرعان ما تنبه شبان الحلقة الصغيرة ومنهم عارف الشهابي الى اوضاع العرب السيئة في الدولة العثمانية التي كانت تتنكر للغتهم ولقوميتهم ، فالفوا بعضهم مع بعض رابطة سرية ظاهرها مدارسة اللغة العربية والادب العربي وباطنها العمل على انتزاع حقوق العرب من الدولة العثمانية . وجعلوا ينشرون دعوتهم في السر ويضمون الى حلقتهم النابهين من الشبان .

وعندما انتقل محب الدين الخطيب وعارف الشهابي الى الاستانة للدراسة العالية متطوعين لالقاء دروس في اللغة العربية وادابها على الطلاب العرب في يومين او ثلاثة ايام من كل اسبوع ، كانا يبثان فيهم فكرة القومية العربية في حذر خوفا من بطش السلطان عبد الحميد .

وفي سنة ١٩٠٦ اسسا في الاستانة مع عبد الكريم قاسم الخليل وشكري الجندي « جمعية النهضة العربية » على ان يكون مركزها الثابت في دمشق فكان من شبابها لطفي الحفار ورشدي الحكيم وعثمان مردم وسامي العظم والمرحومون جورج حداد وذكي الخطيب وفائز الشابي ونجيب الشهابي وغيرهم وكان محب الدين الخطيب رئيسا لها في اسطنبول ثم في دمشق وكان الدكتور صلاح الدين القاسمي اول امين لها في دمشق . وهي اول جمعية قومية كانت تعمل عندنا عن عقيدة وطنية راسخة ، وخطط محكمة ، وشعور بالتبعة . وقد نشر اعضاؤها عقيدة القومية العربية التي كانت في ذلك الزمن كالطفل الذي يحبو ، وذلك باتصالهم بالشبان العرب في مدارس عاصمة الدولة العثمانية وفي الكلية الاميركية وكلية الشيخ عباس الازهري في بيروت .

وكان من خططهم فتح غرف للقراءة ، والتدريس بالمجان في المدارس الاهلية بدمشق . وهو ما فعلوه بعد ان زال سنة ١٩٠٨ حكم السلطان عبد الحميد ، فكان الشهيد الامير عارف الشهابي يشرف على غرف للقراءة اسسوها في الدرويشية ويلقي دروسا في تاريخ العرب في مدرسة المرحوم الشيخ كامل القصاب وهي المدرسة الكاملية الهاشمية ، ودروسا في اللغة العربية في مدرسة شمس الترقي لصاحبها توفيق فكرة مردم بك . ومن الذين كانوا يلقون ايضا دروسا في المدرستين المذكورتين لتلقين التلاميذ المبادىء القومية الدكتور صلاح الدين القاسمي والدكتور اسعد الحكيم وسليم الجزائري وغيرهم .

وكان من الاعمال البارزة للشهيد عارف الشهابي مشاركته الشبان الذين كانوا يدرسون في باريس في تأسيس جمعية « الفتاة العربية » السرية ، وهي الجمعية القومية التي لم يستطع السفاح جمال باشا كشف النقاب عنها ، والتي كان حزب الاستقلال مظهراً لها بعد الحرب العالمية الاولى .

ومن اعماله البارزة ايضا التمهيد لتأسيس المنتدى الادبي في الاستانة ، ومشاركة الشهيد عبد الغني العريسي في جريدة « المفيد » التي تصدر في بيروت ثم نقلاها الى دمشق ، فكانت اكبر جريدة قومية عرفت بمقالات العريسي السياسية الوطنية الجريئة ، وبمقالات الشهابي في تاريخ الامه العربية المجيد ، وحضارتها العظيمة ، وفي اتخاذ الوسائل الناجعة لانهاض امتنا من كبوتها ، وايقاظها من سباتها الطويل الذي كان عمال الدولة العثمانية يحرصون على عدم ايقاظها منه . وكان اسم « عبد الله بن قيس » توقيع الفقيد على مقالاته في جريدة « المفيد ».

ولم تطل مدة هذه الاعمال القومية التي وضع الشهابي ورفاقه من الشبان اسسها فسرعان ما اعلنت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ فاحس بشر الحكومة العثمانية ففر الى « الجوف » مع رفاقه الاحرار عبد الغني العريسي وعمر حمد وتوفيق البساط في طريقهم الى الحجاز ، فاكرم نواف الشعلان وفادتهم. ولكن جده نوري الشعلان اجبرهم على الرحيل خوفا من الحكومة التركية ، فاضطروا الى ركوب قطار السكة الحجازية في مداين صالح ، وفيها أو في تبوك صادفهم طبيب تركي

عرف احدهم ، فوشى بهم ، فقبضت عليهم وحاكمتهم تلك المحاكمة الصورية في ديوان عاليه العرفي ، فدرجوا جميعا مع قافلة شهداء السادس من ايار سنة ١٩١٦.

لقد كان الامير عارف رحمه الله كاتبا وشاعرا وخطيبا ومحاميا وداعيا الى نهضة عربية شاملة ، والى عقيدة قومية استقلالية تصدر عن سويداء القلب . ولو قدر له ولرفاقه من شهداء الحادي والعشرين من آب سنة ١٩١٥ وشهداء السادس من ايار سنة ١٩١٦ ان يبقوا احيـــاء لاستطاعوا ان يكون لهم شأن كبير في الحركات القومية العربية عقب الحرب العالمية الاولى .



عبدالرحمن الكواكبي

الكواكبي . امام كبير من ائمة العلم والمعرفة والتخطيط والكفاح . سيرته غنية وافعاله عظيمة وآثاره باقية خالدة ونحن اذ نقدم هنا سيرته بشيء من التفصيل فلأن فيها امورا لا يمكن لحديث موجز ان يفيها حقها من الشرح فاقرأوا معنا هذه السيرة ..

ولد الكواكبي حول منتصف القرن التاسع عشر ، وتوفي بعد ختامه بسنتين فحياته على وجه التقريب هي النصف الثاني من القرن التاسع عشر في ملتقاه بطلائع القرن العشرين ، وهذه حقبة من حقب التاريخ الحديث يلوح عليها كانها نشطت من عقال ، فكل شيء فيها ينفر من الجمود والركود ويتحفز للحركة والوثوب الى التغيير . والكواكبي في اسرته ومنبته وزمنه ، لوفاق الشرط الذي تتطلبه رسالته المنتظرة في هذا الشرق من البلاد العربية ، رجل مرشح للرئاسة الروحية، مضطهد في سريه وذماره ، ينشأ في بلد عربي عريق يرتبط بعلاقات المشرق والمغرب وتلتقي لديه تيارات الحوادث العالمية ، ويفتح عينيه على العالم وهو يصبح او يمسي على قضية حق او ثورة حرية من وصفه فقد سماه ، وكاد يصمد اليه ولا يتخطاه الى سواه.

وينتسب الكواكبي من ابويه الى الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، وقد روى صاحب (اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء) نسب الاسرة نقلا عن كتاب « النفائح واللوائح من غرر المحاسن والمدائح ».

ومن اعرق علماء حلب من اسرة الكواكبي الشيخ (محمد بن احمد الكواكبي) الذي تولى منصب الافتاء فيها . وله مؤلفات في علوم الفقه والاصول والكلام

والمنطق ، وقد نشأ المرحوم في هذه الاسرة وهي على عهدها بمنازل الشرف والعلم ابوه اهل للقضاء في الخصومات بفضله وعلمه واهل للتدريس في اكبر المعاهد بعلمه وصلاحه ، واخوه الاصغر (مسعود افندي يشترك في معاهد العلم عضواً بالمجمع العلمي في دمشق ، ويشترك في معاهد الحكم عضواً بمحكمة التمييز ، وفي مجالس السياسة عضواً بمجلس المبعوثان ،ويقول عنه لاستاذ محمد كرد علي في مذكراته بعد كلامه عن اخيه عبد الرحمن » وكان هذا يقول لي ان شقيقه مسعوداً اعلم منه .

وقد كتب لي الحظ الاوفى أن زاملته سنين في المجمع العلمي العربي ، رأيته فيها وصفاني مثال العلماء العاملين الذين ذكرت كتب الرجال تراجمهم العظيمة ، وكانوا ممن اعتز بهم العلم وارتقى الفكر الاسلامي ، حللت روح هذين الحبيبين الشقيقين والحبرين الكاملين فما سقطت فيها على عيب من عيوب الآدميين جل الصانع ، وسجلت أنهما تقدما جيلهما في كل معاني الفضل والنبل ، وما أسفا الى ان يعيشا كاكثر أبناء الفقهاء عيش التوكل والخنوع يأكلون ويشربون ويتناسلون ويجمعون من حطام الدنيا ماوصل الى ايديهم ، فالدم الطاهر ينم عن صاحبه كيفما تقلبت به الاحوال ، ولا يحتاج الى من يدل عليه .

من أقسى مايصاب به الطفل في نشأته أن يفقد الام ويفترب عن الاب وعن الجيرة التي فتح عليها عينيه من دنياه .

وقد أصيب الطفل عبد الرحمن بهذه المحن جميعاً ؛ فصاب لها عوده اللدن وهو دون العاشرة ، ونمت على معدن الجهاد في طبيعته قبل أوان الجهاد في عنفوان شبابه ، فمن هذا الطفل الدارج من المهد نشأ ذلك الكهل الذي أقدم على مخاطر الهجرة والرحلة الطويلة على غير أمل في العودة الى الوطن وعلى غير أمان من الغيلة والضنك والمشقة ، وهو رب أسرة وأبو أبناء وفرع أرومة تأصلت في منبتها ـ الذي قطع نفسه عنه ـ منذ مئات السنين .

تقول الاوراق الرسمية ان صاحب الترجمة ولد حوالي سنة ١٨٤٨ (١٢٦٥ هـ) ويقول ابنه الدكتور اسعد انه ولد بعد ذلك بسنوات ، وطلب تصحيح تاريخ

المولد لدخول الانتخابات ، وانما كان مولده الثابت من سجلات الاسرة في سنة ١٨٥٤ (١٢٧١ ﻫ) وتوفيت والدته سنة ، ١٢٧٦ ﻫ) وهو في نحو السادسة من عمره ، او هو قد ناهز العاشرة . اذا اخذنا بالرواية الرسمية .

والمرجح أنه كان أصغر من سنه في الأوراق الرسمية عند وفاة والدته ، فان أباه قد أودعه حضانة خالته السيدة صفية بأنطاكية فأقام بها الى سنة ١٢٨٢ ﻫ ثم عاد الى حلب لدخول المدرسة الكواكبية ، ولو كان قد بلغ العاشرة عندوفاة امه لاستغنى عن الحضانة في هذه السن وصلح لدخول المدرسة الكواكبية بغير تأجيل . ولو صح تاريخ الأوراق الرسمية لكان في نحو السابعة عشرة حين عاد من أنطاكيــة لدخول المدرسة ، وهي سن متأخرة لمن يبتدىء الدراســة في مثل أسرته .

وقد تعلم الكواكبي في مكتب أنطاكية ومدرسة حلب كل ما يتلقاه التلميذ فيهما من العلوم المدرسية ، وتعلم اللغتين التركيــة والفارسية ومبادىء الرياضيات على الأساتذة الخصوصيين من أصدقاء أبيه ، وتلقى من أبيه صفوة العلوم الدينية والادبية التي كان يتقنهــا ، وهو كما تقدم من معلمي الجامع الاموى وأصحاب المناصب الشرعية .

قال صاحب المنار : « ان الفقيد درس قوانين الدولة درساً دقيقاً وكان محيطاً بها يكاد يكون حافظا لها ، وله انتقاد عليهــا يدل على دقة نظره في علم الحقوق والشرائع ، ولهذا عينته الحكومة في لجنة امتحان المحامين . ولا أعلم أنه برز في فن أو علم مخصوص فاق فيه الاقران ، ولكنه تلقى ماتلقاه من كل فن بفهم وعقل بحيث اذا أراد الاشتغال عملا أو تأليفاً أو تعليما يتسنى له أن ينفع نفعا لاينتظر من الذين صرفوا فيه أعمارهم ..على أن الفقيد لم يتعلم شيئاً من علوم النفس والاخلاق والسياسة وطبائع الملل والفلسفة في مدرسة ، وانما عمدته في هذه العلوم ما طالعه منها من المؤلفات والجرائد التركية والعربية » .

ولا يخفى أن طالب العلوم السلفية لايحتــاج في عصر الكواكبي أو في العصر

الحاضر الى غير اللغة العربية للتوسع فيها غاية ما ينشده من توسع المتخصصين أو المتطلعين. أما المعارف العصرية فقد يستهين الناشيء العصري بما كان يتيسر منها للقارىء الذي يجهل اللغات الاوربية قبل مائة سنه ولكنه في الحقيقة محصول وافر لا يستهان به في زمانه . اذ كان في وسع العارف بالعربية أو التركية أن يطالع مئات من الكتب المترجمة عن اللغات الاوربية في العلوم والآداب . وأن يطالع معها المجلات والصحف التي تكتب في هذه العلوم والآداب أو تنقلها عن ثقاتها وأعلامها . وقد تحدث الزهاوي عن نفسه فقال انه لم يتزود من المعرفة العصرية بزاد غير مطالعاته في المجلات العربية والتركية وبعض الكتب المترجمة التي وصلت الى يديه في بغداد ، وبهذا الزاد - ولا زيادة عليه - أصبح في مقدمة الباحثين المعدودين الى أوائل القرن العشرين ، فضلا عن مكانته الشعرية وعمله في مجالس النواب .

ولا نخال أن الكواكبي فاته مرجع هام يعنيه أن يطلع عليه في موضوعات بحثه وتفكيره ، بل لا نخال أنه ضيع فرصة يستفيد منها علما أو خبرا نافعا من زوار حلب الذين يجتمعون بمثله في مركزه ووجاهته بين قومه ، وكانت حلب لا تزال في عهد نشأته مثابة الزائرين والمقيمين من فضلاء الشرق والغرب ، وبينهم وكلاء الشركات التي كانت تتأسس في المدينة على طريق التجارة الهندية الشرقية قبل افتتاح قناة السويس ، وبينهم فئة من الإيطاليين في ابان ثورتهم القومية ، وفئة من الفرنسيين في ابان ثورتهم الدستورية ، وكثير منهم مثقفون ينتمون الى حزب من الاحزاب الثورية في بلادهم وينقلون معهم آراء فلاسفتهم وزعمائهم وابناء طوائفهم وجماعاتهم ومن هؤلاء ولا شك عرف الكواكبي ما عرف عن « ألفييري » صاحب كتاب الاستبداد الذي أشار اليه في كتابه ، ولا يبعد أن يكون قد انتظم معه في محفل من محافل « الكربوناري » التي ألفها ثوار ايطاليا لمنافسة الماسون الانجليز أو الفرنسيين وجعلوا يرحبون فيها بفضلاء الامم الاخرى لنشر مبادئهم وتأييد دعوتهم الى الحرية ، وهي قريبة يومئذ من دعوة الثائر العربي الى الوحدة القومية والاستقلال عن السيادة التركية .

والظاهر من سيرة الكواكبي ومن كتابته معاً أنه أصاب من الثقافة القديمة والحديثة ما يرشحه لاعماله في المدينة ولرسالته في العالم العربي والعالم الاسلامي على عمومه ، فلم يوكل اليه عمل من أعمال الحكومة أو المطالب الاجتماعية الاأثبت فيها كفاية الادارة الحسنة والنشاط المنجز والتصرف المبتكر الذي يخرج به على الاثر من جمود الوتيرة المشهور في عرف الغربيين بالروتين ، ويمضي به الى نتيجته المقصودة التي عطلها التقليد وطول الاهمال .

عمل وهو يناهز الثانية والعشرين في صحيفة « فرات » العربية التركية التي أنشأها المؤرخ التركي الكبير أحمد جودت باشا قبل عمل الكواكبي فيها بنحو عشر سنوات ، ثم أنشأ في حلب أول صحيفة عربية باسم « الشهباء » مع زميله هاشم العطار . ثم أنشأ صحيفة « الاعتدال » بعد تعطيل الشهباء لصراحتها في نقد الادارة وتلميحها الى وساوس السلطان عبد الحميد ، فأصابها ما أصاب الشهباء بعد قليل .

ويئس الكواكبي من أداء رسالة الاصلاح بالكتابة المحجور عليها في الصحافة المهددة بالتعطيل . فقبل العمل في وظائف الحكومة وتولى في هذه الوظائف ضروبا منوعة من أعمال الادارة والقضاء والتعليم ، ومنها وظائف لها اتصال بالتجارة كادارة حصر الدخان ولجنة البيع والفراغ التي تستبدل أرض الحكومة ورئاسة غرفة التجارة ، وغيرها من الوظائف التي ندع احصاءها ونكتفي في هذا المقام بدلالتها جميعاً على كفاية الرجل لكل عمل تولاه ، وعلى تلك القدرة الملهمة التي أعانته على احياء كل وظيفة عهدت اليه من موات الوتيرة أو « الروتين » ونجاحه في تنظيفها وتطهيرها بعد نفض الغبار عنها ، واستصلاحها للانتاج والتعمير ..

فمن مبتكراته في المجلس البلدي أنه جعل للسابلة طرقا غير طريق الابل والدواب ، وأقام في ضواحي المدينة سلاسل من الحديد للفصل بين معالم الطرق وتيسير السير للمشاة .

ومنها أنه راد أجور العمال سداً لذرائع الرشوة والاختلاس ، وأنه رتب أوقات العمل وموضوعاته وخصص الاماكن لكل منها منعا للزحام والانتظار، وانه تتبع المهربين للدخان وأجرى عليهم الرواتب والوظائف التي تغنيهم عن التهريب ، وأنه ضبط أعمال الغرفة التجارية بالاحصاءات ونظمها على مثال الغرف التجارية في عواصم الحضارة .

ومن مشروعاته اعداد العدة لانارة المدينة وضواحيها بالكهرباء ،وبناءمرفأ للسويدية وجلب الماء الى حلب من نهر الساجور ؛ وتجفيف المستنقعات التي كانت فيما مضى منبعاً للاوبئة والحميات الدورية .

وقد أقام في حلب معظم أيامه لم يفارقها قبل سفره منها الى القاهرة غير مرات قليلة في رحلات قصيرة ، احداها ابعد فيها الرحلة الى الاستانة حيث علم ابو الهدى بمقدمه فنقله الى داره وحاول اجتذابه الى حظيرته واستبقاءه تحت نظره ، فماطله الكواكبي بالوعد حتى تمكن من العودة الى بلده بغير اختياره .

وفي خلال هذه الاعمال والوظائف جرت عليه نزاهته – وصراحته – عداوة أعداء العمل النزيه والقول الصريح ، فابتلي في ماله ورزقه ، وتمحل الولاة المعاذير الواهية لمصادرة ارضه واتلاف مرافقه ، واقاموه بمرصد للتهم والوشايات كلما نشبت فتنة او وقعت جريمة لصقت به الفرية العاجلة وصنعت الجاسوسية صنيعها في تلفيق الاسانيد وتلقين الشهود وتدبير المحاكمات ، وينقضي الوقت في شغل شاغل من هذه التهم ومن جهوده وجهود انصاره في دفع شرها وردكيدها ومنها ما يبلغ به الخطر مبلغ الاتهام بالخيانة وعقوبة الاعدام .

يلقى حجر على القنصل الايطالي فيتهم الكواكبي لان القنصل اصيب في جوار داره ، ويطلق الرصاص على الوالي فيتهم الكواكبي لان الكواكبي اشتكاه وانحى عليه ، ويشتجر جماعة من ابناء الجاليات فيتهم الكواكبي لانه حسن العلاقة محبوب بين ابناء هذه الجاليات .

ومن نبل هذا الرجل الكريم ان الوالي الذي اتهمه بتدبير الجريمة لاغتياله – جميل باشا – وقع في خصومة عنيفة بينه وبين القنصل الانجليزي في المدينة ،

فلجأ القنصل الى نفوذ دولته في العاصمة ، وبادرت العاصمة الى التحقيق على غير عادتها ، فقدم مندوب الوزارة المحقق الى حلب وهو يعلم بنزاهـــة الكواكبي وصدقه ويعلم انه مطلع على الحقيقة من شهادته وتوجيهاته ، فأبت مروءة الرجل ان يؤيد وكيلا لدولة اجنبية تغنم التأييد في البلدة من وراء فوزه في هذه الخصومة وانتصاره على اكبر ولاتها ، وشرح الموقف لمندوب التحقيق من هذه الوجهة ، فسلم الوالي من عاقبة هذه الازمة ، ولم يسلم الكواكبي من اذاه .

كان الكواكبي « ابن عصره »

وجهد الانسان من الثقافة ان يعيش في عصره لايتخلف عن شأوه في علمه ولا في عمله ، فليس للثقافة من حسنة الزم لها من هذه الحسنة في مجال المعيشة ولا في مجال الدعوة الى التجديد والإصلاح .

فالرجعي الجامد يعيش في الايام الماضية

والطوبي الحالم يعيش في الايام المقبلة .

ولكن الرجل المثقف يؤدي للثقافة كل حقها اذا استفاد من معارف زمنه ولم يتقيد ببقايا الزمن السابق وعقابيله ، فعمل كمـا ينبغي ان يعمل كل من تحرر من قيود التقليد التي يرتبط بها المقلد وهو لايفقه معناها .

والذين أصابوا من ثقافـــة القرن التاسع عشر كما اصاب الكواكبي كثيرون يعدون بالمئات ولكن الذين لهـــم من ثقافتهم فضل كفضله آحاد يعدون على اصابع اليدين .

ان فضل المثقفين في عصر الكواكبي أنهم تعلموا كما فرضت عليهم البيئة ان يتعلموا ، وسبقوا الى العلم مع الزمن كله ، غير مخيرين .

أما فضل الكواكبي في ثقافته فهو أكبر من فضل واحد :

إنه فضل المثقف الذي تلقى ثقافته من ثمرة اجتهاده ومشيئته .

وإنه فضل المثقف الذي بلغ بوسيلته ما لم يبلغه أنداده باضعاف تلك الوسيلة .

وإنه فضل المثقف الذي انتفع بثقافته ونفع بها قومه ، وجعلها عملاً منتجاً ، ولم يتركها كما تلقاها أفكاراً وكلمات .

تلقى الكواكبي في المكاتب والمدارس ما يتلقاه الأطفال الصغار ، فكل ما ينملة الفتى الناشىء أو الرجل الناضج هو كل مما تلقاه في بيته واستفاده من مطالعاته .

وتعلم من اللغات - غير العربية - لغتين شرقيتين هما التركية والفارسية ، وكلتاهما تأخذ الثقافة العصرية منقولة من اللغات الاوربية ، متفرقة بين أشتات من الكتب والصحائف ، فبلغ بهذه الوسيلة في مطلبه الذي عناه ، شأواً لم يسبقه فيه رواد الثقافة من مناهلها في لغاتها ، وبين أيدي الاساتذة والمعلمين من أهلها .

وعرف ما عرفه بهذه الوسيلة فعمل به كل ما في الوسع أن يعمل في زمنه ، وأبقى أساسه من بعده صالحاً للبناء عليه .

وذلك فضل النبوغ وفضل الزعامة ، لا يستوعبه ان يقال انه عمل رجل من المثقفين ، حتى يقال بل رجل من المثقفين النابغين العاملين .

ولا يطلب من المثقف العامل أن يحيط بمعارف عصره ويتقصى كل جديد من بدائع جيله ، فليس ذلك بميسور ولا هو بلازم للمثقف العامل ، وانما يغنيه أن يعرف ما يعنيه في عمله ، وأن يعمله على النحو الذي جددته معارف الزمن ولم يكن ميسوراً لمن يتركون القديم على قدمه .

وكان الكواكبي يعمل في اصلاح المجتمع الاسلامي واصلاح الحكومة المستبدة ، فلم يدع باباً من ابواب المعرفة التي تعينه على قصده لم يأخذ منه ما يكفيه ويغنيه ، ولم يزهد في أصل من أصول هذه المعرفة الا ما كان من قبيل الفضول في تحقيق غاياته القريبة وجهوده المرجوة .

فمن صفحات « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » نعلم أنه كان على اطلاع حسن في مسائل الدين ، وكان على دراية محققة بتواريخ الامم الاسلامية ، وكان من الملمين أولاً فأولا بالفتوح العلمية في العصر الحديث يفهم منها ما لم يكن يفهمه غير القليلين في أوربة نفسها يومئذ من آراء الرواد السابقين فيها . فكان ملماً بمذهب النشوء والارتقاء ، ملماً بآراء العلماء في أطوار المادة وحركات الأفلاك وتكوين الكرة الأرضية والمنظومة الشمسية ، وكان في شؤون الاجتماع والسياسة

يلم بأخبار الثورة الفرنسية وأخبار الزعماء والعاملين على استقلال الشعوب وتوحيد الأقوام ، ويتتبع قواعد الحكم ومواضع التفرقة بينهـا ، وينظر في الأخـلاق والعادات التي تقترن بالفوارق بين أمة منها وأمة وبين حكومة منها وحكومة ، ويخص الشؤون العملية بعنايته الأولى غير معرض عن جوانبها الأدبية ، فلا يخفى عليه اسم الشاعر الذي أبدع الأناشيد أو الخطيب الذي أثار النخوة ، ولكنه يقنع من ذلك بالحظ الذي سلك عنده « شيلر » في سلك حسان والكميت ، فلا نظنه كلف نفسه الاطلاع على أناشيد المنشدين وخطب الخطباء ، بل لا نظنه كان يعتز بها في لغة من اللغات التي يحسنها لو أنه سأل عنها ، ولكنه لم يعلم بالاسماء الا لعلمه بالدعوات التي أبرزتها في صفحات رواتها ومؤرخيها .

ولا اختلاف في مذهب الثقافة الدينية ، على اعتقاد الكواكبي ، بين التجديد والمحافظة على تراث السلف الصالح في صدر الاسلام . لان نهضة المسلمين انما تقوم على تطهير الديانة الاسلامية من نفايات الخرافة ، وحواشي البدع التي لصقت بها في عصور الجمود والتقليد ، فالمحافظة في اعتقاده مرادفة للتجديد على اقوم سبله ، واعتبار الكواكبي من صميم المحافظين في الدين لايخرجه من زمرة المجددين المتشددين في طلب الاصلاح ، بل هو على قدر غلوه في المحافظة على تراث السلف يغلو في دعوة الاجيال المقبلة الى التحرر والتجديد .

وقد كان يشتد في المحافظة احياناً فيتحرج من تغيير العادات في غير حرج ، كما نرى في انتقاده الذي انحى به على السلطان محمود لانه « اقتبس عن الافرنج كسوتهم والزم رجال دولته وحاشيته بلبسها حتى عمت او كادت ، ولم يشأ الاتراك ان يغيروا منها الاكمام رعاية للدين لانها مانعة من الوضوء او معسرة له » .

وان هذا الانتقاد لافراط في المحافظة يلحقه بزمرة المحافظين الغلاة في حرصهم على سمت السلف وزيه الذي لامساس له بجوهر العقيدة ، وقد رأينا من معاصريه انه ربما نزع اليه افراطاً منه في السخط على سلاطين الدولة واساليبهم في التقريب بين الشرق والغرب والقديم والحديث . ولكنه كما نرى من محافظته على زيه في وطنه وبعد الهجرة منه الى الهند والديار المصرية — لم يكن يعمل غير مايقول ،

ولم يكن ينقد بكلامه مايترخص فيه بسلكه، فانه بقي على سنة اسلافه قبل عهد السلطان محمود ، فلم يبدل زيه الا ليلبس العباءة والعقال .

وربما جنح في اواخر ايامه الى آراء بعض المتصوفة في تفسير الكائنات الغيبية بالمعاني النفسية والرموز الروحية ، وابعد ماذهب اليه من ذلك قوله في فصل التربية من طبائع الاستبداد : « ان يشأ الكمال يبلغ فيه الى مافوق مرتبة الملائكة ان كان هناك ملائكة غير خواطر الخير ، ان شاء تلبس بالرزائل حتى يكون احط من الشياطين . ان كان هناك شياطين غير وساوس النفس بالشر . »

ورد هذا في الطبعة التي ظهرت بعد وفاته ولم يرد في طبعة من الطبعات التي اصدرها في حياته ، ولعله مر بهذا الخاطر بعد اطلاعه على التفسيرات الحديثة على اطراف من كلام الصوفية المتأخرين ، ولا نخاله قد غفل في مطالعاته الدينية عن تفسير كتفسير السيد محمد الالوسي المتوفي سنة ١٢٧٠ هجرية ، فانه يشير الى امثال هذه الخواطر كما فعل بعد تفسير الاية عن ذلل آدم وحواء اذ أكلا من الشجرة فقال : « وبينما هما يتفرجان في الجنة اذ راعها طاووس تجلى لهما على سور الجنة فدنت حواء منه ، وتبعها آدم فوسوس لهما من وراء الجدار .. ومشهور حكاية الحية .. يشير اولها عند ساداتنا الصوفية الى توسله من قبل الشهوة خارج الجنة ، وثانيها الى توسله بالغضب . وتسور جدار الجنة عندهم اشارة الى ان الغضب اقرب الى الافق الروحاني والحيز القلبي من الشهوة . وقيل ان توسله الى ماتوسل اليه اذ ذاك مثل توسله اليوم الى اذلال من شاء الله تعالى واضلاله ، ولا نعرف من ذلك الا الهواجس والخواطر التي تفضي الى ماتفضي ، ولاجزم عند كثير في دخول الشيطان في القلب بل لايعقلونه ، ولهذا قالوا : ان خبر « ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » محمول على الكناية عن مزيد سلطانه عليهم وانقيادهم له ، وكأني بك تختار هذا القول ، وقال ابو منصور : ليس لنا البحث عن كيفية ذلك ولا نقطع القول بلا دليل . »

وقد تقدم من كان يقول ــ كالجبائي وأبي بكر الرازي ــ ان اثر الشيطان

في دم الانسان كأثر النفس فيه ، فليس للشيطان وجود جسدي في داخل البنية الانسانية ، وليس من سلطان عليه غير ما يتغلب به على هواه .

فان الكواكبي قد لاحت له هذه اللمحة العابرة فما عدا بهــا تلك الخواطر الصوفية ولا تلك الخواطر الطيبة التي أوردها مورد الاحتمال ، ولم يقطع بالقول – على حد عبارة السيد الالوسي – بغير دليل .

بدأ الكواكبي حياته الصحفية بعد منتصف القرن التاسع عشر ، وأخذ يشدو في فن الكتابة خلال تلك الفترة المتوسطة بين ابتداء حركة الترجمة والطباعة وانتشار المطبوعات من كتب السلف ، وما استتبعه من شيوع الفصاحة والاستقلال بالتعبير .

ولا أدل من أصالة طبعه من أسلوب كتابته ، فان أسلوبه ينم على مطالعاته ، ومطالعاته تنم على الوجهة التي اتجه اليها بفطرته واستعد لها بتربيته ، وهي وجهة العمل على محاربة الاستبداد وتدعيم مبادىء الحرية .

وكان الكواكبي كثير المطالعة فيما ينفعه في هذا المطلب ويستحث خطاه الى هذه الوجهة . قليل المطالعة فيما عداه من كتب العلم الذي يسميه علم اللغة او العلم الموكل بشئون المعاد بمعزل عن شئون الحياة ، والى هذا يشير في كتابه « طبائع الاستبداد » حيث يقول : « ان المستبد لايخشى علوم اللغة – تلك العلوم التي بعضها يقوم اللسان وأكثرها هراء وهذيان . نعم لايخاف علم اللغة اذا لم يكن اللسان حكمة حماس تعقد الالوية أو سحر بيان يحل عقد الجيوش » .

ثم يقول : « كذلك لايخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد المختصة بما بين الانسان وربه ، لاعتقاده أنها لاترفع غباوة ولا تزيل غشاوة ، وانما يتلهى بها المتهوسون » .

الى ان يقول : « ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الامم وطبائع الاجتماع والسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الادبية ، ونحو ذلك من العلوم التي تكبر النفوس وتوسع العقول وتعرف الانسان ماهي حقوقه » .

ومن المؤلفين الذين ذكرهم في مقدمة طبائع الاستبداد أولئك الذين الفوا في علم السياسة ممزوجا بالاخلاق كالرازي والطوسي والغزالي والعلائي ، وهي طريقة الفرس ، وممزوجاً بالادب كالمعري والمتنبي ، وهي طريقة العرب ، وممزوجاً بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة ، وهي طريقة المغاربة .

وكان الكواكبي رحالة مطبوعا على السياحة في الآفاق ولم يكن قصاراه أنه رحالة على صفحات الاوراق ،وقد طالع كتب المؤرخين والرحالين قبل ان يخرج من بلده للطواف في الارض والكتابة للتاريخ ، وباشر الرحلة في صفحات الكتب قبل ان يباشرها على متون الإبــل والسفن في الصحارى والبحار ، فمن قرأ ابن خلدون وابن خبير وابن بطوطة ثم قرأ مقالات الكواكبي خيل اليه أنهم قد بعثوا من مراقدهم في رحلة من رحلات العصور يكتبون ويسجلون ماشهدوه وكابدوه لأبناء العصر الحديث .

وقد اتسم اسلوبــه بسمة الأسلوب الذي تكتب به التواريخ والرحلات ، وسلست عبارته في نسق مرسل واضح يقرر الواقع ويتبع المشاهدة ويتبسط في وصف مايراه بالفكر كما يتبسط في وصف مايراه بالعيان .

ولا يخفى ان هؤلاء الكتاب ـ كما قدمنا ـ قد تخصصوا لتسجيل المشاهدات الاجتماعية والتاريخية ولم يتخصصوا لمباحث اللغة والبيان ، فليس من الغريب ان تتسرب الى اقلامهم أخطاء الالسنة في زمانهم ، وان يتردد في عباراتهم بعض السهو الذي يتحرز منه اللغويون وكتاب الأدب ، في مدرسة ابن المقفع والبديع والجاحظ وعبد الحميد . وشأن الكواكبي في ذلك قريب من شأن ابن خلدون وابن جبير ، بــل من شأن الغزالي وابن مسكويه وسائر أصحاب الأقلام التي لم تتفرغ للأدب واللغة وشغلتها دقة التعبير عن الإعراب

تقرأ له ـ مثلا ـ في تعريف الاستبداد : « ان الناظر في احوال الامم يرى ان الامراء يعيشون متلاصقون متراكمون ... اما العشائر والامم الحرة . . . فيعيشون متفرقون »

او تقرأ مثل قوله : « الأزواج الحمقاء » .. « ولايخرج قط » .. « وقوانين لكافة الشئون » .. « وحياة النائم المزعوج بالأحلام » .. « وعلى هـذا النسق يوضع كتابا للمنهيات » .. « وان هـؤلاء الائمة الأقدمين لايقدرون ان يطلعوا على مالا يقدر المتأخرون ان يطلعوا عليه » .. « ولا تتحقق في الإنسان الا في فن واحد فقط يتولع فيه فيتقنه » ... الى أشباه هذه المآخذ التي كانت تشيع في صحافة عصره ولم يكد يسلم منها كتاب الأدب والبيان ، وقد يعتبر الكواكبي من أقل زملائه ونظرائه تعرضاً لهذه المآخذ والهنات .

ولاننسى أن « الكواكبي » كان يتحرى فيما يكتب ويعمل شيئاً واحـداً لايتحول عنه بفكره ولا بقوله ، وهو محاربة الاستبداد .

ولا ننسى أن معيار القول النافـع عنده ان يخشاه المستبد ولايطمئن اليه ؛ والمستبد لايخشى علوم اللغة التي اكثرها هزل وهذيان ولكنه يخشى من الكلام حماسة الخطابة ، لأنها تعقد الألوية وتحل عقدة الجيوش كما قال .

ولهذا كان هذا الأسلوب الخطابي من الاساليب المحببة الى الكواكبي في كتابته وكان يخيـل اليه أحياناً أنه يلقي بالقلم جانباً ليتكلم إلى القراء كلام الخطيب على المنبر لمن يصغون اليه بالأسماع ، أو يصغون اليه بالقلوب بدل الاسماع .

وكأننا نراه يهم بذلك وهو يختم كلامه على الاستبداد والترقي بهذه الكلمات :

« على ذكـر اللوم الإرشادي لاح لي أن أصور الرقي والانحطاط في النفس وكيف ينبغي للانسان العاقل ان يعاني إيقاظ قومه وكيف يرشدهم الى انهم خلقوا لغير ماهم عليه من الصبر على الذل والسفالة ، فيذكرهم ويحرك قلوبهـم ويناجيهم وينذرهم .

وقد توفر الكواكبي على قضيتين اثنتين لم يشتغل زمناً طويلا بقضية غيرهما ، وهما قضية البحث في أسباب تأخر الامم ـ ولا سيما أمم العالم الاسلامي ، وقضية البحث في عوامل الاستبداد في حكم الدول ، ولاسيما الدولة العثمانية .

وأودع زبدة آرائه عن قضية العالم الاسلامي في كتابه « جمعية أم القرى » .

وأودع زبدة آرائه عن الحكم والاستبداد في كتابه « طبائـــع الاستبداد ومصارع الاستعباد ».

فهو قد استوفى رسالة التأليف في كلتا القضيتين اللتين تجرد لهما طوال حياته فلا بقية من هذه الرسالة الا ان تكون بقية الشرح والتفصيل ... أما اسباب الرسالة وغايتها فقد استوفاها الكتابان .

ونعلم من أقوال مترجميه العارفين به أنه وضع كتاباً سماه «صحائف قريش» وكتاباً آخر سماه « العظمة لله » وترك ديواناً من الشعر لم تبق منه غير كناشة من القصائد في الحكمة والنسيب وأغراض المدح والرثاء والهجاء تزيد أبياتها على ثلاثة آلاف .

أما « صحائف قريش » فهو تذييل لكتابه الاول (أم القرى) تضمن على مايظهر نخبة من فصول الصحيفة الدورية التي أشار في الكتاب الى اتفاق الجمعية على اصدارها ، وقد أوصى المؤلف قراءه أن ينتظروها ويحفظوها : « فمن يظفر بنسخة من هذا السجل فليحرص على اشاعته بين الموحدين . وليحفظ نسخة منه ليضيف اليه ماسيتلوه من نشريات الجمعية باسم صحائف قريش التي سيكون لها شأن ان شاء الله في النهضة الاسلامية العلمية والاخلاقية ».

ولم يطلع أحد من زملائه في القاهرة على هذه « النشريات » ولا ورد من أخباره فيها أنه طبع صحيفة منها حيث كان يطبع كتبه ورسائله ، ولكن ابنه الدكتور محمد أسعد يقول في مجلة الحديث ان الكتاب كان معداً للطبع « ولكن حال دون ذلك سياحته الطويلة المذكورة في غير هذا المكان ، ثم وقوع الوفاة الفجائية ، فصودر مع الاوراق المصادرة وأرسل هدية الى السلطان فلم أعثر له على أثر ».

أما كتاب « العظمة لله » فهو كتاب سياسي « كسائر ماخطته يمينه » على قول الاستاذ محمد كرد علي في الجزء الثاني من مذكراته ، وهو يقول قبل ذلك في هذه المذكرات : « الغالب أن السلطان اغتبط بموت الكواكبي وأراد القضاء على أفكاره المضرة فأرسل مدير معارف بيروت ــ عبد القادر القباني ــ يأخذ أوراقه

ويرضي اسرته بمبلغ من المال ، فاحوال الا عدداً معيناً من كتب الكواكبي المطبوعة أما المخطوطة فأخذها أحد البالغين الراشدين من اولاده ، وفيها كانت أوراقه شرية وبعض كتبه التي بدأ وضعها ، ومنها ماقرأ في مقدمته واسمه « العظمة لله » .

والذي نرجحه ونستدل من عنوان الكتاب عليه أنه اضافة الى طبائع الاستبداد ينكر فيها على المستبدين تطاولهم الى مشاركة الله في عظمته وينكر فيها على الخانعين من رعاياهم خضوعهم لتلك الناظمة ، ولا نخاله قد ذهب فيها شوطاً بعيداً وراء المقدمة التي أطلع عليها صديقه كرد علي ، لانه لم يطلعه على شيء بعدها مع ملازمته اياه الى يوم وفاته .

أما الديوان فمن أمثلته ماأشرنا اليه في الكلام على أسلوبه وهو يعيد فيه ـ نظماً ـ بعض ماكتبه نثراً في « أم القرى » ، وطريقته فيه طريقة العلماء في منظوماتهم التي يخاطبون بها نظراءهم مخاطبة العارف للعارف ولا تراد لخطاب قراء الشعر عامة ، لانها « مفهومات » لاتبلغ قراءها من جانب التخيل واستجاشة الشعور .

ويخطر لنا أنه في مديحه وهجائه أراد أن يستعين بالنظم على استمالة أمراء الجزيرة العربية الذين زارهم في رحلته الى المشرق ، وأنه وقف هجاءه على الذين استحقوا نقده في كتابيه ثم استحقوا في صفتهم الشخصية نقداً غير نقد المبادىء والآراء .

أم القرى

اول كتاب وضعه الكواكبي فهو باكورة أعماله القلمية وفاتحة اشتغاله بالتأليف .

أما من ناحية التفكير والتحضير فلا يحسب الكتاب من أعمال الكواكبي لانه نتيجة ناضجة لدراسة طويلة وصل منها الى نهاية الرأي في أحوال العالم الاسلامي واسباب ضعفه وبواعث الامل في صلاحه وتقدمه ، فهو محصول حياة فكرية وقفها على هذه الدراسة في جوهرها ، ولم تكن دراساته الاخرى الا شعاباً متفرعة عليها .

« وجمعية أم القرى » اسم أطلقه المؤلف على مؤتمر عام تخيل انعقاده في مكة المكرمة وجمع فيه مندوبين ينوبون عن أمم العالم الاسلامي في المشرق والمغرب يمثلون الهند والصين والافغان والعراق والحجاز والشام ونجد واليمن ومصر وتونس ومراكش وغيرها من الاقاليم المشتركة بين هذه الاقطار ، وألقى على لسان كل منهم خطابا يشرح حالة المسلمين كما اختبرها من شئون بلده وبما يعلمه عن شئون سائر البلدان الاسلامية . واجتهد في اتقان صورة المؤتمر السري بما له من المحاضر المسجلة والرموز المصطلح عليها وعلامات الارقام التي يتفاهم عليها الاعضاء لانه أراد أن يتمم الصورة شكلا على ما يظهر ، أو أراد أن يوقع في روع القارىء ما يبعث عنده الثقة باجتماع العزم على العمل وقيام المؤتمرين على تنفيذه ، الاأن الثابت من رواية أصدقائه وآله أنه ألف الكتاب قبل رحلته الى مصر والى الحجاز ، وتحدث هو عن هذا الكتاب الى صديقه السيد محمد رشيد رضا ـ صاحب المنار ـ فلم يزد على أن قال ان للجمعيه أصلا وتوسع في سجله، وعاوده غير مرة بالتنقيح والحذف والزيادة .

وفي وسعنا أن نفهم هذا « الاصل » على سبيل الظن من تصفح ألقاب المندوبين في الكتاب . فلا بد أن يكون المؤلف قدالتقى في بلده بأناس من فضلاء المسلمين الذين يترددون عليه في طريق الحج فذاكرهم في مسائل الدين ومصالح المسلمين وسمع منهم وأسمعهم ما عنده من الاراء والمعلومات في هذه الشئون ، ولا حاجة الى التوسل في قراءة السجلات للتيقن من هذه الحقيقة البديهية ، فان لمحة عابرة الى الالقاب التي اختارها للمندوبين تشعر القارىء بمعرفة حسنة للامم التي نسبهم اليها ، يجوز أن تعرف بالسماع والاطلاع . ولكن لايجوز ان تكون كلها سماعاً واطلاعاً مع امكان المقابلة في حلب بينه وبين الوافدين اليها من عامة الاقطار الاسلامية لمختلف المقاصد والوجهات ، ومع عناية المؤلف باستيعاب الاخبار والاراء في موضوع كتابه وقوله لصديقه ان لها اصلا

توسع فيه .

انظر مثلا الى القاب الاستاذ المكي والصاحب الهندي والفاضل الشامي والمولى الرومي والمجتهد التبريزي والرياضي الكردي والعالم النجدي والمحدث اليمني والعلامة المصري والخطيب القازاني ، وسائر الالقاب وعناوين الخطاب التي تخللت المساجلات والخطب على السنة هؤلاء الاعضاء .

ان هذه الألقاب لم توضع جزافاً ولم يتميز بعضها من بعض لأسباب تتعلق بأفراد المندوبين ولاينظر فيها الى خصائص شعوبهم او الى السمات العامة التي تبرزهم بين جملة المسلمين ، فاذا جاوزنا الألقاب الى السجلات وما وعته من الآراء والأوصاف والوقائع ومناحي التفكير وضح لنا ان المؤلف قد صدر فيها عن علم واسع بأحوال الشعوب الإسلامية واحوال السادة المتخصصين فيها للامامة العلمية والفتوى الدينية ، ويجوز كما أسلفنا ان يجتمع هذا العلم للمؤلف بالاطلاع والسماع على الألسنة ، ولكن البعيد عن الظن الذي لايجوز في حكم العرف والعادة ان يصل الى حلب قصادها والعابرون بها من أرجاء العالم الإسلامي ولا يتفق بينهم وبين الكواكبي لقاء مقصود او غير مقصود ، يتطرق فيه الكلام الى حديث كحديث أم القرى كما سجلته محاضر الكتاب .

وغير بعيد أن يكون « الكواكبي » قد سمع بعض هذه الاراء واطلع على بعضها ووصل اليها والى غيرها باطالة التأمل وانعام النظر وتقليب المسائل على شتى الوجوه ، غير ان هذه الاراء لاتحتوي الكتاب ولاتغني عنه ، فان الكواكبي لم يعرضها عرض الحكاية ولا عرض النقل والرواية ، بل كان عمله فيها عمل « الغربلة » والتحليل والنيابة عن المناقشة والموازنة والأخذ والرد الذي لايتأتى في غير المجتمعات المشهودة .

فكل سبب من اسباب الأعضاء المتفرقين يعللون به ضعف المسلمين ينتهي الى ان يكون سبباً من ناحية ونتيجة من ناحية أخرى ، وكل عرض من أعراض الجمود يجري به الدور والتسلسل على هذه الوتيرة ، الى ان تنتهي كلها الى سبب

لاسباب في عقيدة الكواكبي كما نفهمها في ديدنه وهجيراه في التفكير ، وليس هناك سبب لجميع الاسباب غير الحكومة السيئة أو غير الاستبداد .

فلماذا يضعف المسلمون ؟

يضعفون لانهم أهملوا آداب الدين التي نهضوا بها في صدر الإسلام .

ولماذا أهملوا آداب الدين ؟

لانهم جهلوا لبابه وأخذوا منه بالقشور ؟

ولماذا جهلوها ؟

لانهم فقدوا الهمة وقنعوا بالضعة واستكانوا الى الخور والتسليم

ولك أن تتابع حلقات السلسلة عكسا كما تابعتها طرداً ، فتقول انهم فقدوا الهمة لانهم جهلوا ، وانهم جهلوا لانهم أهملوا آداب الدين ، وانهم أهملوا آداب الدين لانهم ضعفوا .

فكل علة من هذه العلل هي مقدمة من جهة ونتيجة من الجهة الاخرى، الا الحكومة السيئة في تعليل الكواكبي فانها تبطل الدور والتسلسل لانها ملتقى الاسباب والنتائج في كل عرض من الاعراض . فالاستبداد جهل وضعف واهمال وآفات تعرض للرعاة ثم تعرض منهم الرعية فتجري دواليك في حلقة مفرغة لاتنتهي أبداً مع بقاء الاستبداد . ومن ثم يصح ان يقال ان الفكرة في أم القرى هي الفكرة في طبائع الاستبداد ، وان طبائع الاستبداد لايحتوي شيئا لايكتنبه من كتب أم القرى قبل التنقيح .

ويقول احد الادباء في ترجمته للكواكبي في سلسلة نوابغ الفكر العربي ان كتاب أم القرى : « صدر في حياته منقحاً بقلم السيد رشيد رضا أو بقلم الشيخ محمد عبده كما قال الاب شيخو » ويشير بهذا الى قول الاب شيخو في تاريخ الاداب العربية في الربع الاول من القرن العشرين عند كلامه عن ام القرى انه « نظر فيه الشيخ محمد عبده »

ثم يعقب قائلا « وكل الذي نستطيع ان نقول في اسلوب كتابته انه قريب

من اسلوب هذين الرجلين وهو اسلوب الفحول لذلك العصر » .

ولانرى مايراه ذلك الاديب من التشابه بين اسلوب الكواكبي واسلوب الاستاذ الإمام او تلميذه السيد رشيد فان في الكتاب من مآخذ النحو والصرف والترتيب مايتحرج منه السيد رشيد غاية التحرج ولا يسكت عن نقده اذا عرض عليه ؛ كما صنع مراراً في تعقيبه على الرسائل والمصنفات التي يقراها لاصدقائه وزملائه ، والاستاذ الإمام يكتب بقلمه على نهج غير نهج السيد رشيد كما يظهر من اسلوبه في « رسالة التوحيد » وفي « الإسلام والنصرانية » وفي المقالات الادبية ، ويقع الالتباس احيانا بين اسلوب الامام واسلوب تلميذه لان قراء المنار كانوا يحسبون ان تفسير القرآن الذي كان ينشر فيه مكتوب بقلم الشيخ محمد عبده وهو في الحقيقة ملخص او مقتبس من دروسه في الرواق العباسي بقلم صاحب المنار ومن هنا يظن ان الاسلوبين على شبه قريب وهما مختلفان مع اتفاقهما في التحرز من المآخذ اللغوية واجتناب الصيغ المولدة والصيغ التركية .

ولا يمتنع عندنا ان يكون الشيخ محمد عبده او السيد رشيد قد نظرا في الكتاب وابديا عليه بعض الملاحظات واخذ المؤلف بما ابدياه . بل نحن نجزم بمراجعتهما لاراء الكتاب ونصيحتهما بحذف طائفة من العبارات السياسية التي وردت فيه . وتثبت هذه المراجعة من المقابلة بين النسخة التي طبعها السيد رشيد في مطبعة المنار والنسخ التي لم يشرف على طبعها . فقد حذفت منها العبارات التي اشتدت فيها الحملة على الدولة العثمانية ، واتبع السيد رشيد في حذفها راى الاستاذ الامام فيما وجهه اليه من النصائح غير مرة اذ قال السيد رشيد وهو يعد وجوه النقد التي كان استاذه يصارحه بها : انها تشمل « الخوض في سياسة الدولة العثمانية في بعض الاحيان » ... قال : « وهذا ماكنت اكرهه انا ايضاً فيعرض لي من الضرورة مايحملني عليه » .

والكواكبي يعلم أن أمراء المسلمين تأخروا وأخروا معهم رعاياهم لانهم احاطوا عروشهم بشر اذم من الحاشية المتملقين واستمعوا الى مشورتهم في اختيار الولاة

والرؤساء من أذنابهم وأقربائهـــم واقصاء المرشحين الولاية والرئاسة من الكفاة المخلصين والأمناء العاملين .

فان لم يكن قد علم ذلك من مشاهداته ومطالعاته فهو مدفوع الى علمه بما يبصره أمامه من ذلك المثل البارز ولو كان وحيداً في زمنه ، وما هو بالوحيد .

فالصيادي كان يتحكم في مناصب القضاة والمفتين كما قال صاحب الاعلام وكان يتحكم في مناصب الولاة والرؤساء فيسندها الى اصهاره وأقربائه ويذهب هؤلاء الى مراكزهم وهم يعلمون ماتفرضه الوظيفة عليهم وأوله تعظيم شأن المحسن اليهم والتشهير بمن ينافسهم وينافسونه من جلة العلماء ودعاة الاصلاح .

قال صاحب المنار : ان أبا الهدى سعى في اسناد ولاية طرابلس الى أحـد أصهاره فأصبـح الناس يحجمون عن ذكر اسم جمال الدين والثناء عليه في مجلسه ولم يقنع أبو الهدى بمصادرة هذا المصلح الكبير في حياته في البلاد التي يتناولهـا نفوذه من ولايات الدولة العثمانية ، فكتب الى صاحب المنار بعد وفاة جمال الدين كتابا (في التاسع والعشرين من رجب سنة ١٣١٦) - لعل الكواكبي قد اطلع عليه - عتب فيه عليه لثنائه على جمال الدين فقال : « اني أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفغن جمال الدين الملفقة وقد تدرجت به الى الحسينية التي كان يزعمها زورا . وقد ثبت في دوائر الدولة رسميا أنه مازندراني من أجلاف الشيعة ، وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية » .

وكان هذا ديدن الصيادي في انـكار الحسب على غيره والاستئثار به لنفسه ولو لم يكن صاحب الحسب من منافسيه على نقابة الاشراف أو حراسة الاوقاف . وانما يقطع عليه السبيل ليخمله ويحبط مسعاه ولو كان فيه خير عميم للدولة وسائر المسلمين ، وكذلك كان تدبيره لاحباط سعي جمـــال الدين في التقريب بين الدولة التركية والدولة الفارسية لتتفق السياسة بينهما على محاربة الاحتـــكار ومقاطعة الدول المستعمرة التي تتعدى على احداهمـــا تخويفاً لها من عواقب المقاطعة على مطامعها الاقتصادية .

فاذا جاز أن تخفى على الكواكبي أسباب الفشل الذي منى به المسلمون فيما وعاه التاريخ أو أحاطت به التجربة والحادثة ، فليس من الجائز أن تفوته أسباب الفشل التي تقتحم عليه داره وتسلبه قراره ، ويبتليه بها الصيادي في شرفه ونسبه وعمله واجتهاده ، ولا يرضيه منـــه الا ان يعترف له بالشرف الذي لغتصبه منه ويجزيه بالتأييد والتمكين على محاربته اياه .

غير ان الكواكبي لم تعوزه الامثلة غير هذا المثل في بلدته وفي عاصمة الدولة، فكل من تولى الحكم في حلب كان مثلاكهذا المثل في كشفه عن المساوىء وهدايته الى مواطن الاصلاح ، ووسائل الكواكبي الى كشف الحقيقة غير قليلة في نطاق حياته ومجال معيشته ، لاذا صرفنا النظر عن مطالعاته ومحادثاته . اذ هي وسائل الرجل المتصل بوظائف القضاء والادارة ومراكز التجارة وشركات الاحتكار ، وهي الى جانب ذلك وسائل الرجل الذي يحمل تكاليف الوجاهة ويقيمهالناس مقام المسئول عن مرافق البلدة وخفايا الكسب والسعي فيها من مباح ومحظور .

ان المباحث في (ام القرى) تجربة شخصية لعبدالرحمن الكواكبيلاتعوزها الزيادة من تجربة غيرها ، فليس في الكتاب فكرة يعز عليه في ذكائه وبحثه ان يستوحيها من مكانه وزمانه ، ولا غضاضة على مثله ان يسترشد بعد ذلكبنصائح ذوى الراي فيما يذاع او لايذاع،وفيمايحسن نشره لحينه او يحسن ارجاؤه الى حين.

وعلى الجملة يصح عندنا ان نفهم ان جوهر الكتاب وهو البحث عن علل الامم الاسلامية وعوامل شفائها عمل خالص للكواكبي فرغ منه في بلدته قبل هجرته منها اما موضع تنقيحه والاضافة اليه والحذف منه فهو شكل الكتاب ومـــا كتبه فيه اخيرا عن شكل « الجمعية » كما تخيلها وكما اعتقد بعد رحلاته في العالم الإسلامي انه اقرب الى تنفيذها ، وقد نشر الكتاب في طبعات متلاحقة فاعيد فيه ماحذف منه ، فلا التباس اليوم بين عمل الكواكبي في « ام القرى » وبين عمل الناصحين فيما ابقاه وفيما حذفه منه الى حين .

طبائع الاستبداد

هذا الكتاب الذي يعد آية الكواكبي ، يتألف من سلسلة مقالات نشرها لاول مرة في صحيفة المؤيد وتناول في كل مقالة منها عارضاً من عوارض الاستبداد التي يشاهد اثرها في احوال الامم والافراد ، وانتهى الكتاب وقد بحث فيه جملة العوارض الاجتماعية التي تصاحب الاستبداد في احوال الدين والعلم والمجد والثروة والاخلاق والتربية والتقدم ، ومهد للمقالات بتعريف الاستبداد ثم عقب عليها بوسائل الخلاص منه والغلبة عليه .

ومقالات الكتاب جميعاً تنبىء عن دراسة وافية للعوارض التي شرحها او اجمل القول فيها ، وتدل على تأمل طويـــل في موضوعاتها يستفاد من النظر والتجربة كما يستفاد من الاطلاع والمراجعة ، ولهـذا خطر للاستاذ احمد امين مترجم زعماء الاصلاح انهـــا نتيجة دراسته بعد ان « ساح في سواحل افريقيا الشرقية وسواحل آسيا الغربية ودخل بلاد العرب وجال فيها واجتمع برؤساء قبائلها ونزل بالهند وعرف حالها ، وفي كل بلد ينزلها يدرس حالتهـا الاجتماعية والاقتصادية وحالتها الزراعية ونوع تربتها وما فيهـــا من معادن ونحو ذلك ، دراسة دقيقة عميقة ، ونزل مصر واقام بها ، وكان في نيته رحلة اخرى الى بلاد المغرب يتم فيها دراسته ولكنه عاجلته منيته .. نشر نتيجة دراسته في مقالات كتبت في المجلات والجرائد ثم جمعت في كتابين اسم احدهما ـ طبائع الاستبداد ـ والاخر ـ ام القرى ـ ..

والواقع ان الكواكبي درس موضوعات الكتابين قبل رحلته المطولة في البلاد الشرقية وقبل هجرته من حلب الى القاهرة ، وقد عني حفيده الدكتور عبد الرحمن الكواكبي بالتنبيه الى ذلك في مقدمة الطبعة الاخيرة من كتاب ام القرى التي طبعت في سنـة (١٩٥٩) فقال انه « لابد في هذه المناسبة من الاشارة الى حقيقة

تاريخية تلقى ضوءا على موضوع هذا الكتاب ، وهي ان جدي رحمه الله الف ام القرى وطبائع الاستبداد قبل هجرته الى مصر ، وكان عمي الدكتور اسعد الكواكبي يتولى تبييض ام القرى له في حلب ، كما اخبرني ايضا عالم حلب الثقة المرحوم الشيخ راغب الطباخ ان المؤلف اطلعه عليه قبل سفره الى مصر . ولما كان السيد الفراتي لم يغادر حلب خلال مقامه فيها الا الى استانبول ولم يقم بجولاته الى العالم الاسلامي الا بعد رحيله إلى مصر . فان المؤتمر الذي عقد في مكة ، ويدور عليه موضوع الكتاب ، انما هو مؤتمر تخيله المؤلف ليعرض فيه آراءه ».

ويطابق هذا القول ما رواه الاستاذ الغزي للاستاذ سامي الكيالي صاحب مجلة الحديث كما نشره في مجلة الكتاب سنة (١٩٤٧) اذ يقول :

« وقبل سفره بيوم واحد زارني في منزلي يودعني واخبرني انه عازم في غده على السفر الى استانبول لتبديل نيابته ، اي نيابة قضاء راشيا — وكنت عالماً بكتابه (جمعية ام القرى) وقد شعرت منه العزم على طبعه فوقع في نفسي انه سيعرج على مصر لطبعه ونشره ، اذ لايمكنه ان يطبعه في غيرهـــا ، وحذرته من ذلك وقلت له : اياك ياأخي والسفر الى مصر . فانك متى دخلتهـــا تعذر عليك الرجوع الى وطنـــك ، لانك تعد في الحال من الطائفة المعروفة باسم — جوز ترك — ولا يتأخر وسمك بهذه السمة قيد لحظة ، ولما اشتهرت وعرفت به من شدة المعارضة وانتقاد الاحوال الحاضرة . فقال : لم اعزم الاعلى السفر الى استانبول للغرض الذي ذكرته لك ، وقد كتم سر سفره حتى عـــن اعز اصدقائه ، ثم ودعني ومضى ، وانا اسأل الله تعالى ان يرعاه بعين رعايته وان يجعل التوفيق رائده والنجاح مرشده وقائده ، وكانت مبارحته حلب في اوائل سنة ١٣١٦ هجرية (هكذا) . وبعد ان مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوماً لم نشعر الا وصدى مقالاته في صحف مصر ، واخذت جريدة المؤيد تنشر تفرقة كتاب طبائع الاستبداد الذي لم يطلعنا عليه مطلقاً بخلاف كتاب جمعية ام القرى . فقد اطلعنا عليه مراراً ثم انه طبع الكتابين المذكورين وقام لهما في المابين السلطاني ضجة عظيمة وصدرت ارادة السلطان بمنع دخولهما الى الممالك

العثمانيـة .. بيد أنها رغماً عن ذلك كله وصـلا الى حلب على صورة خفيـة وقرأناهما في سمرنا المرة بعد المرة » ..

فالمدرسة التي توفر عليها في الكتابين كانت من مطالعاته وتجاربه ومشاهداته في حلب والاستانة وغيرهما من بلاد الدولة العثمانية ، وهي كافيه لمن كان في مثـل فطنته للأحاطةبظواهر الاستبداد وخوافيه والعلم بأثر الاستبداد في أحوال الامم الكثيرة التي كان من اليسير عليه أن يتصل بها بين موطنه وعاصمةالسلطنة الكبرى وليس عليه ان يبحث في غير تجربة واحدة ليعلم كل ما اثبته في الكتاب من اثر الاستبداد في الدين والعلم والمجد والاخلاق والثروة وعوامل التقدم ، وتلك هي تجربته لمساعي « ابي الهدى الصيادي » ووسائله في الاستئثار بنقابة الاشراف ومنصب شيخ المشايخ في الدولة ، مع ذلك الجاه الذي كان يعينه علىاللعب بمظاهر المجد ومداورات السياسة كما يشاء .

وقد صادف الكواكبي التوفيق في موعد وصوله الى القاهرة ، فانهوصل اليها وهي في فترة من فترات الجفاء المتداولة بين « يلدز » و « عابدين » ولولا ذلك لتعذر نشر المقالات في صحيفة المؤيد لسان القصر الخديوي وهو يتحفظ غـاية التحفظ في الاشارة الى الدولة بكلمة تؤيد وشاية الجواسيس فيما اتهموا به الاسرة الخديوية غير مرة من التطلع الى الخلافـة والعمـل على اثارة الفتنة في البلاد العربيـة ، ولكن « المؤيد » يومئذ كان في حل من ذلك التحفظ الشديـد ، ليعرب عن اشياء الخديو من خطة الدولة ويوميء الى سادة « يلدز » بالمساومة على مواضع الخلاف .

ومع هذا لم يستغن الكاتب عن بعض المصانعة عند عابدين وحاشيتهالتهوين الامر على الصحيفة وتيسير مقامه في البيئة التي اختارها ولم يكن له بدمن اختيارها فقد حرص على هذه المصانعة الى ان فرغ من نشر المقالات واظهرها في اول طبعة فقال في تقديمها : « اقول وانا المضطر للاكتتام حسب الزمان ، الراجي اكتفـاء المطالعين الكرام بالقول عمن قال ، انني في سنة ثماني عشر وثلثمائه والف وجدت زائراً في مصر على عهد عزيزها ومعزها حضرة سمى عم النبي العباس الثاني الناشر لواء الحرية على اكناف ملكه ، فنشرت في بعض الصحف الغـراء ابحاثاً علميـة

سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، منها ما درسته ومنها مااقتبسته غير قاصد بها ظالما بعينه ولا حكومة مخصصة . انما اردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون انهم هم المتسببون لما هم فيه ، فلايعتبون على الاغيار ولا على الاقدار ..»

ولقد كان في وسع الكواكبي ان ينشر مقالاته في صحيفة من صحف الاحتلال التي كانت تجاهر بمحاربة السيادة العثمانية خدمة للسيادة البريطانية ، ولكنه لو فعل ذلك لخرج عن صفته الاصلاحية الاسلامية ، وعرض نفسه لشبهات الدعاية الاجنبية ، ووطن العزم على القطيعة الدائمة بينه وبين البلاد المشمولة بسيادة الدولة والمطالبة بالولاء لها في جوازاتها وشروط الاقامة فيها والرحلة منها واليها ، ويظهر من كتمان اسمه وتوقيعه بالحرف الاول منه انه لم يكن قد وطن العزم على ذلك عند وصوله الى القاهرة ، وانه اراد ان يختبر الحالة فيما حوله قبل ان يقطع بالعزم الاخير على المسلك الذي لا رجعة فيه .

والمرجع عندنا انه طوى كتاب طبائع الاستبداد في حلب ولم يطلع عليه اصدقائه لسبب غير التحرج من خطره والحذر من افشاء خبره واعتات اصحابه بكتمان سره . فانه اطلعهم على كتاب ام القرى وفيه من المحذورات ما لا يقل عن اخطر المحذورات في كتابه طبائع الاستبداد فقد صرح فيه بالدعوة الى الخلافة العربية وانكر الخلافة على بني عثمان ورماهم بالتواطؤ مع الدول على التنكيل بمسلمي الاندلس ، ومسلمي الامارات الاسيويه . وقد يرد على الخاطر انه أغفل هذه المسائل في النسخة المخطوطة واكتفى فيها بالتلميح دون التصريح وبالاشارة دون الاسهاب ، ولكن الكتاب يشتمل بعد اغفال هذه المسائل على مآخذ منكرة اخذها على الامراء المستبدين وعزا فيها تخلف المسلمين الى مساوئهم وسوء سياستهم وتدليسهم على رعاياهم وتقريبهم للمفسدين والدجالين من الولاة ورجال الدين ، ولم يقل عن المستبدين كلمة في طبائع الاستبداد الا كان لها نظير في معناها ومرماها من فصول ام القرى على السنة المسلمين الترك والعثمانيين ، وهو تصريح بالحكومة المقصودة لم يرد له نظير في طبائع الاستبداد . اذ يتسع له عموم القول ان يعلن في تقديم الطبعة الاولى انه « لايقصد ظالماً بعينه ولا حكومة مخصصة » .

فليست الحيطة سر كتمان الكتاب عن اصدقائه الذين اطلعهم على كتاب جمعية ام القرى ، وانما نرجح انه طواه عنهم لانه لم يفرغ من وضعه في صيغــة النشر والتلاوة ، ووقف به عند تدوين العناوين ورءوس التعليقات واعدادها للتوسع فيها وافراغها في قالبها الاخير عند تقديمها للطبع او للنشر في الصحف ، ويتبين ذلك من المقابلة بين مقالات المؤيد ومقالات الطبعة الاخيرة بعد تنقيحهـــا فان الاختلاف بينهما اشبه بالاختلاف بين عجالة التحضير وبين النسخة المتممــة للنشر والتلاوة . وقد ظهرت الطبعة المنقحة في ضعفي صفحات الطبعــة الاولى ، وقال الدكتور عبد الرحمن الكواكبي حفيده انه « ينشر هذا الكتاب للمرة الاولى على العالم العربي منقحا ومزيدا بقلم المؤلف ، وهو يختلف كثيراً عن النسخة المطبوعة والمتداولة حتى اليوم » .

ويروي الاستاذ سامي الكيالي عن الدكتور اسعد الكواكبي ابن المؤلف انه اخبره « بأن والده رحمه الله قد أضاف على الكتاب بعد طبعه اضافات كثيرة ، والهوامش التي يحتفظ بها بقلم والده تؤلف كتاباً مستقلا بحجم الكتاب المطبوع وهو يعتزم طبع هذه النسخة قريباً ليطلع العالم العربي على ثمرة أفكار والده في الحرية والاستعباد » .

ونجتزىء في المعارضة بين الطبعة الاولى وبين النسخة التي طبعها الدكتــور أسعد وصدرت منذ سنوات ـ بالمقابلة بينهما في موضوع واحـــد يدل على سائر المواضيع : وهو كلامه على التربية .

ففي الطبعة الاولى وردت مقالة الاستبداد والتربية بالنص الذي ننقل منــه ما يلي اذ يقول :

« خلق الله في الانسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد . فأبواه يصلحانه وابواه يفسدانه ، اي ان التربيــة تربو باستعداده جسما ونفساً وعقلا ان خيراً فخير وان شراً فشر . وقد سبق ان الاستبداد المشئوم يؤثر على الاجسام فيورثها الاسقام ويسطو على النفوس فيفسد الاخلاق ويضغط على العقول فيمنع نماءهـا بالعلم ، بناء عليه تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج ، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته . واستعداد الانسان لاحــد

لغايته . فقد يبلغ في الكمال الى ما فوق مرتبة الملائكة لانه هو المخلوق الذي يحمل الامانة وقد ابتها كافة العوالم ، ويصح ان تكون هذه الامانة هي تخيير تربية النفس على الخير او الشر ، وقد يتلبس بالرذائل حتى يكون احط من الشياطين بل أحط من المستبدين ، لان الشياطين لاينازعون الله في عظمته ، والمستبدون ينازعونه فيها . ولكن لحاجة في النفس ، والمتناهون في الرذالة قد يقبحون عبثاً لا لغرض ، حتى قد يتعمدون الاساءة لنفسهم .

« الانسان في نشأته كالغصن الرطب فهو مستقيم لدن بطبعه ، ولكنها أهواء التربية تميل به الى يمين الخير أو شمال الشر ، فاذا شب يبس وبقى على اميالة ما دام حياً ، بل تبقى روحه الى أبد الابدين في جحيم الندم على التفريط أو نعيم السرور بابقاء حق وظيفة الحياة . ما أشبه الانسان بعد الموت بالفرح الفخور اذا نام ولدت له الاحلام ، وبالمجرم الجاني اذا نام فغشيته قوارص الوجدان بهواجس كلها ملائم وايلام .

أما في الطبعة الاخيرة فهذه المقالة ترد على الصيغة التالية :

« خلق الله في الانسان استعداداً للصلاح واستعدادا للفساد ، فأبواه يصلحانه وابواه يفسدانه . أي أن التربية تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلا ، ان خيراً فخير وان شراً فشر ، وقد سبق أن الاستبداد المشئوم يؤثر على الاجسام فيورثها الاسقام ويسطو على النفوس فيفسد الاخلاق ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم .. بناء عليه تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج ، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته ، وهل يتم بناء وراءه هادم ؟.. الانسان لاحد لغايته رقياً وانحطاطا ، وهذا الانسان الذي حارت العقول فيه الذي تحمل أمانة تربية النفس وقد أبتها العوالم ، فأتم خالقه استعداده ثم أوكله لخيرته ، فهو ان يشأ الكمال يبلغ فيه الى ما فوق مرتبة الملائكة ان كان هناك ملائكة غير خواطر الخير ، وان شاء تلبس بالرذائل حتى يكون احط من الشياطين ان كان هناك شاطين غير وساوس النفس بالشر . على أن الانسان اقرب للشر منه للخير ، وكفى أن الله ماذكر الانسان في القرآن الاوقرن اسمه بوصف قبيح . كظلوم وغرور وكفار وجبار وجهول واثيم . ما ذكر الله تعالى الانسان

في القرآن الا وهجاه فقال : قتل الإنسان ما أكفره .. ان الإنسان لكفور .. ان الإنسان لفي خسر . ان الإنسان ليطغى .. خلق الإنسان عجولا .. خلق الإنسان من عجل .

« ما وجد من مخلوقات الله من نازع الله في عظمته . فالمستبدون من الإنسان ينازعونه فيها والمتناهون في الرذالة قد يقبحون عبثا لغير حاجة في النفس ، حتى وقد يتعمدون الإساءة لأنفسهم .

« الإنسان في نشأته كالغصن الرطب ، فهو مستقيم لدن بطبعه ، ولكنها أهواء التربيـة تميل به الى يمين الخير أو شمال الشر ، فاذا شب يبس ويبقى على أمياله ما دام حيا ، بل تبقى روحه الى أبد الآبدين في نعيم السرور بايفائه حق وظيفة الحياة ، أو في جحيم الندم على تفريطه . وربما كان لا غرابة في تشبيه الإنسان بعد الموت بالإنسان الفرح الفخور اذا نام ولدت له الأحلام ، أو بالمجرم الجاني اذا نام فغشيته قوارص الوجدان بهو اجس كلها ملائم وآلام » .

ولم تخل مقالة من مقالات طبائع الاستبداد من مثل هذا التنقيح أو مثل هذه الزيادة على قلة في بعض المواضع وكثرة في غيرها . الا أنه فارق بين النسختين كالفارق بين المسودة المعدة للتذكير والتحضير والنسخه التي فرغ منها عمل التأليف .

على أن العبرة بروح الكتابة وما نسميه « نفس الكاتب » في كلتا النسختين. ولم تكن هذه « الروح » في المقالات ولا في الطبعة الاولى باخفى منها في الطبعة التي ظهرت بعد وفاة المؤلف ، بل نرى أن روح الكاتب كانت في « مسوداته ومذكراته » أبرز منها في طبعتها الاخيرة ، كما يتفق احيانا في الكتابة التي تمليها السجية عفو الخاطر والكتابة التي يدخلها التنقيح وتعمل فيها المراجعة ، أو كما يتفق أحيانا بين الكتابة « المركزة » المتجمعة وبين كتابة التبسيط والإفاضة . وقد أحسن السيد محمد رشيد رضا حين شبه المقالات في الحالتين بالأديم الممدود فقال في المنار ان « الكتاب كان مقالات مختصرة نشرت في المؤيد ثم مدها صاحبها من الأديم العكاظي وزاد عليها فكانت كتابا حافلا ينجلي له علمه الاول بصورة أوضح وأجلى » .

نعم ، أوضح وأجــلى . ولكن الأديم هو الأديم ولعله قبـل مدة كان أوثق وأقوى .

وسرعان ما تداول القراء مقالة بعد أخرى من هذه « المذكرات » التي هيأها صاحبها للنشر في الصحافة حتى أحسوا أنها طبقة في النقد الاجتماعي لم يعهدوهـا لعامة الكتاب في الصحف ، وعلموا من مطلعها أنهـا بقلم رجل من رجال الدين فخطر لهم أنهـا لا تكون لغير رجل من رجلين : الأستاذ الإمام محمد عبده أو السيد محمد رشيد رضا تلميذه ومريده . ولسنا نحسب أنه خاطر يخطر لمن يعرف أسلوب الرجلين ويحسن التمييز بينه وبين أسلوب تلك المقـالات ، فان بضعة أسطر من المقالات كافية للجزم بانهـا اسلوب من الكتـابة غير أسلوب الإمام وتلميذه الرشيد ولكن شيوع هذا الخاطر يدل على المنزلة التي قدرهـا جمهرة القراء لصاحب تلك المقالات فلن يكون في تقـديرهم الا علمـاً من أعلام الرأي والاصلاح .

ولم تنقطع الظنون عند وقوف المطلعين على سر مقالات المؤيد ، فقد كان من اليسير على الكثيرين أن يفهموا أن محمد عبـده وتلميذه الكبير لا يتسع لهما صدر « المؤيد » مع ما بينهما وبين القصر الخديوي من الجفوة والقطيعة ، ولم يكن من اليسير على قراء ذلك العهد أن يفهموا كيف يتسنى هذا البحث لكاتب شرقي عرفوا أنه لا يعلم من اللغات غير اللغات الشرقية ، ولا يحسن القراءة في غير لغته واللغتين التركية والفارسية .

قال السيد رشيد : « كنا على وفاق في أكثر مسائل الإصلاح حتى ان صاحب الدولة مختار باشا الغازي اتهمنا بتأليف الكتاب عند ما أطلع عليه » .

ثم قال : « وقد زعم زاعمون أن معظم ما في الكتـاب مقتبس من كتاب لفيلسوف ايطالي . ومن كان له عقل يميز بين أحوال الإفرنج الاجتماعية وأحوالنا وذوقهم في العلم وذوقنا يعلم أن هذا الوضع وضع حكيم شرقي يقتبس علم الاجتماع والسياسة من حالة بلاده حتى كأنه يصورها تصويراً .

وقال الأستاذ ابراهيم سليم النجـار : « سبق لي ان قرأت في شبابي كتاب (الكونترا ـ سوسيال) أي العقد الاجتماعي لجـان جاك روسو ثم انقطعت عن

الرجوع اليه . فلما قرأت كتاب طبائع الاستبداد أعاد الى ذاكرتي كتاب الكاتب الافرنسي العظيم . ولو كان الشيخ العربي يعرف ولو قليلا اللغة الفرنسوية لاعتقدت انه اخــذ عنه او احتذى حذوه ولكن الحقيقة ان العقول النيرة والقلوب الكبيرة نيرة وكبيرة مهما اختلفت لغاتها وبلادها واقاليمها .. »

وان الكواكبي نفسه ليعفي القراء والنقاد من مئونة الظن في اقتباسه واطلاعه على وصف الاستبداد وعوارضه الاجتماعية في كتب غيره فانـــه قد ذكر ذلك في كلامه وتبرع به دون ان تدعـــوه الضرورة الى ذكره فكل مايفهم من قراءة « طبائع الاستبداد » ان صاحبه على علم واطلاع في موضوعــه ، وتلك بداهة لاحاجة الى التنبيه اليها . اذ كان من الغفلة ان يطالب الكاتب بالتأليف في موضوع لم يكن على علم به واطلاع فيه .

اما ان يكون الاقتباس على مثال مانسميه بالسرقة المقصودة فذلك اسراف في الظن لامسوغ له سواء رجعــنا بالمعارضة والمضاهاة الى الكتب التي سرد الكواكبي اسماءها او الى الكتب التي اقاضت في هذا الموضوع ولم يكن في وسعه ان يطلع عليها او يسمع بأسمائها .

قال الكواكبي : « لاخفاء ان السياسة علم واسع جداً يتفرع الى فنون كثيرة ومباحث دقيقة شتى . وقلما يوجد انسان يحيط بهذا العلم كما انه قلما يوجد انسان لايتحكك فيه . وقد وجد في كل الامم المترقية علماء سياسيون تكلموا في فنون السياسة ومباحثها استطرادا في مدونات الاديان او الحقوق او التاريخ او الاخلاق او الادب ، ولا تعرف للاقـــدمين كتب مخصوصة في السياسة لغير مؤسسي الجمهوريات في الرومان واليونان ، وانما لبعضهم مؤلفات سياسية اخلاقية كـكليلة ودمنة ورسائل غوريغوريوس ومحررات سياسية دينية كنهج البلاغة وكتاب الخراج . واما في الشئون المتوسطة فلا تؤثر ابحاث مفصلة في هـذا الفن لغير علماء الاسلام فهم الفوا فيه ممزوجا بالاخلاق كالرازي والطوسي والعلائي وهي طريقة الفرس ، وممزوجاً بالادب كالمعري والمتنبي وهي طريقة العرب ، وممزوجا بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة وهي طريقة المغاربة .

« اما المتأخرون من اهل اوربة ثم امريكا فقد توسعوا في هذا العلم والفوا

فيه كثيراً واشبعوه تفصيلا ، حتى انهم أفردوا بعض مباحثه في التأليف بمجلدات ضخمة ، وقد ميزوا مباحثه الى سياسة عمومية وسياسة خارجية وسياسة ادارية وسياسة اقتصادية وسياسة حقوقية الى آخره . وقسموا كلا منها الى ابواب شتى واصول وفروع . اما المتأخرون من الشرقيين فقد وجد من الترك كثيرون الفوا في اكثر مباحثه تآليف مستقلة وممزوجة مثل احمد جودت باشا وكمال بك وسليمان باشا وحسن فهمي باشا ، والمؤلفون من العرب قليلون ومقلون ، والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعلم رفاعة بك وخير الدين باشا واحمد فارس وسليم البستاني والمبعوث المدني ».

ومن ايسر نظرة يدرك القارىء المطلع ان الكواكبي اراد ان يسرد بعض الشواهد على مبلغ اهتمام الاقدمين والمحدثين بعلوم السياسة ومباحثها ، ولم يرد ان يستقصي مراجع الاطلاع في هذه العلوم والمباحث ، ولا مراجع الاقتباس منها في « طبائع الاستبداد ».

ولو انه قصد الى الاستقصاء لما فاته ان يذكر من كتب الاقدمين اهم ماكتبه فلاسفة اليونان وافضله في بابه ، وهما كتاب الجمهورية لافلاطون وكتاب السياسة لارسطو ، وليس هـذا ولا ذاك من رؤساء الجمهوريات ، ولافاته ان يذكر الماوردي صاحب « الاحكام السلطانية ». او بدر الدين بن جماعة صاحب « تحرير الاحكام في تدبير اهل الاسلام » او ابن تيمية صاحب « السياسة الشرعية » ، او محمد بن علي بن طباطبا صاحب « الفخري في الاداب السلطانية » ، او ابن حمدون صاحب « التذكرة في السياسة والاداب الملكية » ، وغيرهم وغيرهم ممن صنفوا والفوا في هذه المباحث ولا يفوت المؤرخ ذكرهم في مقام الاستقصاء .

ولا يلزم ان يكون الكواكبي قد اطلع على كتب المؤلفين الذين ذكرهم في مقدمة « طبائع الاستبداد » ، وانما نرجح ان بعض هؤلاء المؤلفين كان يستدعيه الى قراءته باغراء من سيرته ومناسبات تاليفه . فمن الصعب على باحث كالكواكبي يعرف التركية ان يعرض عن قراءة « احمـد جودت » الصدر الاعظم الذي بلغ من عنايته بالعربية ان يؤلف في نحوها وبلاغتهـا ويعقب على التفسيرات القرآنية فيهـا ، ولم يكن اروج من مصنفاته بين ادباء الترك

والعرب بعد وفاته في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٥) .... ومن الصعب كذلك على كاتب مثله يعرف الفارسية ان يعرض عن قراءة العلائي الملقب بالمحقق الثاني . ١٤٦٣ - ١٥٣٤) وهو المستشار الامين المأمون للشاه طهما سب بن اسماعيل الصفوي الذي ينتسب والكواكبي الى اسرة واحدة ، ولكننا نراجع هؤلاء المؤلفين ونراجع غيرهم من المذكورين في مقدمة « طبائع الاستبداد» فنعلم انهم مؤرخون يروون اخبار الدول والحكومات ويعقبون على عهود السلاطين والامراء ويتحدثون عن العدل والظلم وعن العادلين والظالمين في سياق هذه الاخبار او نعلم انهم من فلاسفة السياسة الذين يفصلون القول في اوضاع الحكم ودساتير الديمقراطية والنظم النيابية ، او انهم ناصحون من حكماء الدين والمعرفة يوصون بالخير ويحذرون من الشر ويعظون الساسة بما ينبغي وما لا ينبغي في حق الله وحق الرعية ، ولم يستخرج احد من كتبهم مبحثاً مفصلا في تحليل عناصر الاستبداد وتفسير عيوبه واعراضه وآثاره في طوائف الرعايا على تعدد اطوارها وشواغلها كهذا المبحث الذي استوحاه الكواكبي من تجاربه ودراساته ونظراته وتأملاته ، ولا يعود الفضل فيه الى غير فطنته وابتكاره واستقلاله بفهمه وصحة نظره ، فان هذه المطالعات قد اطلع عليها المئات كما اطلع عليها الكواكبي ولم يستخرجوا منها الكتاب الذي انفرد به ولم يسبقه احد اليه .

وانما يصدق وصف الاقتباس على مؤلف واحد لم يذكره الكواكبي في المقدمة ولكنه ذكره واستشهد به في كلامه على التخلص من الاستبداد ، (فتوريو الفييري) ، الذي اردف اسمه بنعت المشهور في قوله : « لهذا اذكر المستبدين بما انذرهم به الفياري المشهور حيث قال : لايفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه . فكم من جبار عنيد جند له مظلوم صغير ?!»

ولا بد ان يكون هذا المؤلف هو المقصود فيما رواه صاحب المنار عمن ينسبون افكار الكواكبي الى « فيلسوف ايطالي » معروف ، فانه صاحب اشهر كتاب عن الاستبداد ظهر في اواخر القرن الثامن عشر ١٧٧٧ ، وشاع بعد ذلك ايما شيوع بين ايدى الثوار الايطاليين، ولاسيما جماعة الكربوناري - الفحامين - الذين اسسوا جماعتهم السرية معارضة لجماعة البنائين او الماسون ، وتسرب

اعضاؤها الى كل مكان يغشاه الايطاليون في موانيء البحر الابيض ومدن الشرق الأدنى ، ومنها مدينة حلب التي كانت « مركزا مهما » لتجار البندقية والمتكلمين باللغة التوسكانية ، وأوى اليها كثير من المثقفين والمهاجرين السياسيين متذرعين فيها حركة التجارة على طريق الهند والأقطار الاسيوية.

وبين «الكواكبي» و «الفيري» شبه قريب في السيرة والمنزع وظروف الحياة فكلاهما تعود الرحلة في طلب المعرفة باحوال الإمم ، وكلاهما اضطر الى الكتابة في ظل الرقابة ، وكلاهما نزل مختارا او مضطرا عن ثروته وعتاده ، وزاد «الفيري» فاسلم مابقي له في الثروة الى اخته لتسلمه منها نفقته التي يحتاج اليها ، رغبة منه في التفرغ للرحلة والكفاح بالقلم والدعوة الانسانية .

وكتب « الفيري » مقالاته عن الاستبداد فظهر فيها اثر اطلاعه على «روسو» و« منتسكيو » وعلى « مكيافلي » من قبل ، ولم يظهر فيها مذهب خاص يجيز للناقد ان يصفه بالفيلسوف كما وصفه القائلون بان الكواكبي نقله بحروفه واعتمد عليه في تفصيل آرائه .

والتشابه بين رؤوس الموضوعات باد من النظرة العابرة الى صفحات الكتابين فقد كتب الفيري في تعريف الاستبداد وتعريف المستبد ، ثم كتب عن الخوف والتملق والطموح ، ووزراء المستبد ، ثم كتب عن الإنحلال والدين والمقابلة بين الإستبداد القديم والإستبداد الحديث وعن الشرف المزيف والمجد الكاذب وعن نفوذ الزوجات في عهود الاستبداد وعن وسائل المقاومة للاستبداد وعن الشعوب التي لاتحس الطغيان وعن الحكومات التي تركن اليه ، ونظر في جميع هذه الموضوعات الى اطوار الامم الاوربية على خلاف منهج الكواكبي في النظر الى الامم الشرقية والتعمق في وصف احوالها، مما يجيز لنا ان نقول ان مؤلف ام القرى كان خليقا ان يكتب آراءه عن الاستبداد ولو لم يطلع على الرسالة الايطالية .

ويتساءل الاستاذ احمد امين : كيف وصلت الرسالة الإيطالية الى علمه؟ وهو سؤال لاجواب له غير الحيرة ان لم تكن للكواكبي وسيلة أخرى للعلم بالفيري غير العلم بلغته . الا اننا نعلم من طبائع (الاستبداد) ان الفيري كان مشهوراً عند الكواكبي في زمانه ، ونعلم ان هذه الشهرة لاتستغرب مع كثرة الايطاليين

في حلب ورغبة الكواكبي في الاستفادة من معلومات اصحابه الاوربيين المثقفين وهو كثير الاتصال بهم وهم يلقونه على الدوام في اعماله واعمالهم ، ولقد كان اسم « ايطاليا الفتاة » على كل لسان بين طلاب الحرية العثمانيين ومنهم جماعة « تركيا الفتاة » الذين استعاروا اسمهم من اسم الجماعة الإيطالية ، وقد كان الإيطاليون يسعون في تلقين دعوتهم ولا ينتظرون ممن يسألهم عنها ، وكانوا ينتشرون في سواحل البحرين الأبيض والاحمر وينشرون فيها انديتهم السرية التي تنتمي الى طوائف الفحامين وتحاول ان تزاحم في ميادين السياسة طوائف الماسون أو البنائين الأحرار - التي غلب عليها في الشرق نفوذ الإنكليز والفرنسيين ، ومن تاريخ الكواكبي بعد الهجرة من حلب نعلم أنه كان يلتقي بوكلاء الحكومة الايطالية في شواطىء بحر العرب وينتقل على احدى السفن الإيطالية باذن من اولئك الوكلاء فليس بالعسير بعد ذلك أن يعرف الكواكبي شيئاً عن الكاتب الإيطالي « المشهور » كما وصفه في كلامه وأن يلم برؤوس الموضوعات التي طرقها في رسالته عن الاستبداد وهو مشغول بمكافحة الاستبداد منذ صباه ، وأن يعارض تلك الرسالة بما يقابلها معارضة الشاعر للشاعر في القصيدة المأثورة لديه ، ولا ينقل منه شيئاً بهذه المعارضة غير الوزن والقافية ، أو غير العنوان و المناسبة .

ونحن نرجح هذا الاحتمال على قول بعض المعاصرين ان الكواكبي اطلع على ترجمة تركية لطبائع الاستبداد من عمل كاتب من احرار الترك المهاجرين الى سويسرة يسمى « عبد الله أمين » فاننا نشك في ذلك لان مثل هذه الترجمة لاتطبع يومئذ في البلاد العثمانية ، ولو اذا طبعت في مصر فلا بد ان تكون متداولة معهودة بين العثمانيين اصحاب الكواكبي فلا يهمل ذكرها ولا يختلف الباحثون في امرها عند السؤال عن مصدرها ولا يخفى حقيقة هذا الامر على مختار باشا الغازي وهو وكيل الدولة العثمانية المسئول عن اخبار هذه المنشورات التي تراقبها الدولة .

وأصاب السيد رشيد رضا اذ قال ان مباحث طبائع الاستبداد لايكتبها قلم أوربي ولا يقتبسها شرقي من المراجع الاوربية ، ونزيد على هذا ان « الفيري » نفسه لايستطيع ان يصور عناصر الاستبداد كما صورها الكواكبي من وحي تجاربه وتأملاته في البلاد العثمانية وفي بلده واقليمه بصفة خاصة ، لانه يحمل

« مصورة » تريه مايقع عليه حسه ولا تريه مالم يشهده بعينيه .

فاذا كان جهل الكواكبي بالايطالية يبعث على استغراب علمه بالفيري ، فان جهله بهـذا الـكاتب خاصة هو الغريب من رجل يعاشر الايطاليين ويسمع بثورتهم ويسمع ان ثوار الترك يستعيرون منهم تنظيم حركتهم ، ويسألهم ولا شك عن كاتبهم « المشهور » او يتلقى منهم البيان عنه بغير سؤال .

وما كانت الشبهة ان اتصال الكواكبي بالايطاليين قليل لايسمح بهـذه المعرفة ، وانما الشبهة انها كانت تزيد على اللازم لهذه المعرفة ، حتى خطر لبعضهم انها تمتد من الصحبة الى « التواطؤ » على السياسة الخفية ، فـلولا المصادفة التي وقعت على الرغم من الكواكبي ولم تقع باختياره ولا بتدبيره لا ستعصى على المدافع عنه ان يدخلها بغير حسن الظن وصدق الفراسة .

« حدث في يوم ما ان قنصل دولةايطاليا في حلب ـ السنيور انريكوويتوـ بينما كان راكبا عربته ، ماراً في محلة الجلوم ، التي هي محـلة السيد عبد الرحمن الكواكبي ، اذ وقع على ظهره حجر عائر صدمه صدمة عنيفة تألم منها جداً ، بحيث اضطرته ان يعود الى منزله وان يرسل الى الوالي تقريراً يطلب فيه منه البحث عن الضارب واجراء العقوبة القانونية .. هذه الحادثة فتحت للوالي بابا يلج منه الى الصاق هذه الجناية بالسيد الكواكبي ، لاسيا وقد كانت الحادثه في محلته وعلى مقربة من داره ، وفي الحال اوعز الى بعض شياطينه بأن يرفع اليه تقريراً فحواه ان الكواكبي منضم الى عصابة ارمنية ـ وكانت ثورات الارمن في تلك الايام كثيرة ـ وانه قبل يومين اغرى بعض الناس فرشق على قنصل ايطالياحجراً اصاب ظهره ، محاولا بذلك احداث ثورةبين الارمن والمسلمين بحلب ..وفي الحال اصدر الوالي امره بالقاء القبض على الكواكبي وزجه في السجن ، وما اسرع ما اخرج من السجن مخفوراً واجلس على كرسي المحكمة لاصدار الحكم عليه .

ويستوى اتهام الكواكبي في هذه القضية وبراءته منها في تكذيب الوشاة الذين رجموا بالظن فجعلوه صنيعة الايطاليين ، فان الصنيعة لايسلمه حماته المزعومون الى الموت وهم ينظرون !

برنامج اصلاح

فكر الكواكبي كثيراً ، واطال التفكير ، في جميع المسائل التي بنى عليها دعوته الى الاصلاح . وهي دعوة محيطة بشئون الشرق الاسلامي في زمنه على الاجمال ، وشئون الشرق العربي على التخصيص ، وليست من الدعوات التي تتجه الى ناحية واحدة او تنحصر في جزء من اجزاء الحياة العامة التي تتفرق العناية بها بين اشتات من المصلحين .

وقد نهج في دعوته منهج العلم التجريبي او الفلسفة العملية ، فنظر في جميع العلل وقدر جميع الوجوه ، واعتمد البحث في تلك العلل من ناحية النفي وناحية الاثبات ، فلا يزال بالعلة المقدرة يتتبع اعراضها ويستقصي آثارها ويرى أين مكان الصواب من تطبيقها على الواقع وتفسيرها بالرأى ، واين مكان النقص الذي تقصر فيه عن تفسير الواقع وموافقة الاحوال .

ويبدو لنا منهجه في التفكير والمراجعة من اسلوب كتابيه اللذين عرض فيها آراءه في علل الضعف وشفعها بما يقترحه لعلاج ذلك الضعف والوقوف به عند حده واستئصال اسبابه ودواعيه .

فهو في كتاب « ام القرى » يختار اسلوب المساجلة بين طائفة من اصحاب الآراء ليعرض على لسان كل منهم وجهة نظر يشرحها من جانبه ويتلقى الرد عليها من مخالفيه ، ومنهم من يعلله الضعف بالجهل ومن يعلله بالفقر او يعلله بالاستبداد او يعلله بالخور والجبن وفساد الاخلاق ، او يعلله بالتواكل والتسليم للمقادير ، ومنهم من يلقى التبعة فيه على الامراء او على العلماء او على الخاصة دون العامة ، او على العامة دون الخاصة ويعود باللائمة تارة على المسلمين وتارة على اعداء الاسلام . ثم يتراءى للقارىء من بين مطارح الافكار

ومذاهب الحوار مبلغ كل عة من الاثر ومبلغ كل اثر من الاصالة في الضرر ، ومبلغ الاشتراك بينها في التأثير ، وأيها أحق بالابتداء أو أحق بالارجاء .

وانما يطلع القارىء في الواقع على رأي مفكر واحد يذهب بالنظر في شتى مذاهبه ويراجع نفسه فيا يعن له من خواطره التي طرأت له فامتحنها وثبت عليها أو عدل عنها .

أما أسلوبه في كتاب « طبائع الاستبداد » فهو أسلوب التقسيم واستيفاء الكلام على كل موضوع من الموضوعات ، أخذاً ورداً ، وشرحاً واستدراكاً ، وتقليباً للفكرة على وجوهها ، كما تطورت في ذهن صاحبها وتقدمت بين بداءتها ونهاية التفكير فيها ، وكل موضوع من موضوعات الكتاب عن الدين أو عن المجد أو عن العلم أو عن المال أو عن السياسة فهو مبحث مفروغ منه بين جوانب المناقشة وخواطر الظن والاستدراك وأدلة التشكيك والتفنيد ، مما ينم على بحث طويل في ذلك الموضوع لم يقف عند سوانحه الاولى من الظن العاجل والرأي القطير .

فمن اليسير — من اجل هذا — ان نسمي دعوة الكواكبي فلسفة اجتماعية أو نسميها مذهباً فلسفياً ينتظم بين مذاهب الحكماء المصلحين ، لانها استلزمت من تفكير صاحبها كل ما يستلزمه مذهب الفيلسوف من التحقيق والروية والمراجعة والتوفيق بين النقائض ووجوه الاعتراض .

ولكننا لم نشأ ان نسميها فلسفة ولا مذهباً فلسفياً كسائر المذاهب التي عرفت باسماء اصحابها او بعناوين موضوعاتها ، لان الدعوة هنا عمل يزيد على التفكير ، ولا ينتهي عند مجرد التفكير .

فالدعوة التي تسمى « فلسفة » تدور على البحث والنظر ثم تترك العمل على قواعدها لمن يؤمن بها ويقدر على تطبيقها ، وقد يكون البحث فيها مطلقاً غير محدود بزمن من الازمنة او بلد من البلدان ، ولكنه يرسل على اطلاقه كما ترسل القوانين الرياضية لمن يخترع لها أدواتها ويوفق بينها وبين مطالبها ، فهي فكرة معلقة على زمن مجهول ومجال غير محدود .

ولا نحسب أننا نسمي دعوة الكواكبي باسمها الصحيح اذا سميناها « مذهباً فلسفياً » لنقول انها هي « مذهب الكواكبي » في الاصلاح . فان المألوف عن المذاهب أنها طريق يقابل طريقاً آخر أو طرقاً متعددة لتوضيح رأي او تنفيذ عمل ، ودعوة الكواكبي قد بلغت الى مرحلة وراء المذهب ووراء الاختلاف عليه وجاوزت المذهب الى القرار الذي يوضع موضع التنفيذ ولا يعوقه عنه الا ان يتولاه العاملون .

فصاحب (ام القرى) و (طبائع الاستبداد) لايعرض لنا فكرة معلقة على مجال مجهول ، ولا يعرض لنا مذهباً نقابله بمذهب يعقب عليه ، ولكنه يعرض لنا (برنامجا) يتبعه عمل ، وقراراً تنتهي اليه مذاهب الخلاف .

ان ذلك المنهج (العملي) لهو أجدر المناهج ان ينتظر من عقل كعقل الكواكبي فيما ورثه من استعداد الفطرة وفيما تعوده بتربيته وعمله ، فانه نشأ في بيئة لم تزل من قديم الزمن ملتقى لحركات النشاط والدأب من انحاء العالم ، وتربى في اسرة تعرف الصناعة كما تعرف تكاليف الرئاسة الدينية والدنيوية ، وتولى اعمال الادارة والتنظيم في كثير من الوظائف التي يناط بها تنفيذ الخطط واعداد المشروعات للتنفيذ ، وكاد ان يكون كل تقرير كتبه برنامجا لعمل يؤديه او (مشروعاً) لبرنامج يقترح تنفيذه على غيره .

ونكاد نجزم بأنه بقي في حلب قبل هجرته الأخيرة منها لانه لم يكن قد فرغ من التفكير ولم تتقرر في ذهنه فكرة صالحة للانجاز او صالحة لاقناع غيره بانجازها . فلما نضجت في ذهنه هذه الفكرة وحصل في يديه برنامج العمل لم يكن في طاقته ان يبقى بعد ذلك ولو تهيأت له في بلده اسباب البقاء . لان بقاء المصلح العامل ولديه خطة محضرة للعمل خليق ان يقلقه أشد من قلق الخوف والخطر ؛ وحبس لقواه الجياشة بالحركة اشد من حبس القيد والاعتقال ، وقد يكون غريباً من رجل غير الكواكبي ان يمكث في بلده ويؤلف الكتب التي تهدده في مأمنه ، بل تهدده في حياته ، ولا يخطر له ان يعقد العزم على الهجرة الى بلد آخر يسطر فيه مايدور في خاطره وهو آمن على نفسه وعلى ثمرات تفكيره .

فمن غريب من رجل عبقري كالكواكبي قد يقنع بالفكر ويحسب انه يبث دعوته التي يتم بها رسالة حياته . فما خطر له ان يتعرض بسبب الرسالة من الخطر او المخاطرة خارج وطنه خطر في نفسه قبل ان يجري بها قلمه فكرة مسجلة على ورق مقروء .

اما الرجل العظيم بفطرته فالتفكير عنده تمهيد لرسالة ينتهي فيتهيأ معه القرار وتتبعه الحركة ، وانه ليفكر ويرجع فكره ويستطيب القرار على التفكير والمراجعة الى ان يتحول الفكر الى برنامج مفصل وخطة محدودة ، ويومئذ لا قرار ولا انتظار .

فلما عقد النية على الهجرة خرج من بلده وفي جعبته ذلك البرنامج المحيط بكل جزء من اجزاء الدعوة وكل مقصد من مقاصد الاصلاح .

خرج من بلده في جعبته الرسالة التي يخشى عليها ، وغاية ما اتخذه من الحيطة انه لم يعلن اسمه مع اعلان تلك الرسالة ، ولعله لم يكتمه لانه اعون له على الحركة والتنقل بين الاقطار واستر له ولمن يتحرجون من لقائه لو انكشفت مقاصده وتبين العاجل والآجل من نياته ومساعيه ، ولا بد من مثل هذه الحيطة في دور الاستطلاع وجس النبض ووزن الخطى بين الهجمة والاناة .

وايا كان النص الذي انتهت اليه عبارة المؤلف في كتابيه السابقين لقد كانت اعمال الاصلاح كما ينبغي ان يتولاها العاملون متى صحت عزيمتهم عليها ماثلة امام بصيرته جلية المعالم في خطته ، بعضها مشروح مسهب في ايجاز وسهولة ، وبعضها مذكور كما تذكر رؤوس المسائل المعدودة لها والافاضة فيها ، ولكنها تكفي بتفصيلها واجمالها لتنسيق برنامج العمل والاحاطة باصوله وفروعه فيما يشمله الاصلاح من شئون الدين والدنيا .

وما من شيء يعوز البرنامج الذي يحيط بطالب الاصلاح في مسائل الدين والدولة ومسائل السياسة والاخلاق ومسائل الثقافة والثروة الاقتصادية والتربية الاجتماعية ، وهذه هي المسائل التي احتواها الكتابان على تفصيل او اجمال .

الدولة

الكلام على الدولة وعلى نظام الحكم شيء واحد في مصطلحات السياسة على اجمالها ، ولكنه لم يكن شيئا واحداً في كلام الكواكبي ومعاصريه . لأن كلمة الدولة كانت تعني عندهم « الدولة العثمانية » اذا ارسلت على اطلاقها وكانت لها مسألة خاصة مستقلة بشئونها عن شئون النظم الحكومية ، يحددها مركز الدولة العثمانية الذي كان في اخريات ايامها على الخصوص نمطا عجيبا بين الانماط الدولية يندر نظيره بين دول الشرق والغرب بما لها من تكوين فريد في رئاسة الدولة واجناس الرعايا وقوام السلطة ومواقع البلاد بين القارات الثلاث : أوربة وآسيا وافريقية .

كانت الدولة العثمانية سلطنة أو « امبراطورية »متشعبة تجمع ألفافاً من الامم التي تختلف باجناسها وأديانها ولغاتهاومصالحها ، ويدل على مبلغ تشعبها وانقسامها أن الامم التي خرجت منها واستقلت عن سيادتها بعد ثورات الاستقلال وتقرير المصير زادت على عشر أمم ذات عشر حكومات .

وكان اسم الدولة العثمانية يطلق عليها لان حكامها من بني عثمان قبيلة تركية تنعقد ولاية الامر فيها لسلطانها وقائد جيشها من ابناء قومه ، اذ كان الرعايا الاخرون بمعزل عن جيش الدولة لايشتركون في هيئة عسكرية ـ غير الكتائب المحلية ـ إلا جنوداً متفرقين لايتجمعون معاً في فرقة مستقلة .

وكان رئيس الدولة يضيف الى ولاية السلطنة وقيادة الجيش صفة الخلافة الدينية ولقب « أمير المؤمنين » .

وهي على هذا المركز الحرج تواجه الدول الاوربية مواجهة العدو القديم الذي تتربص به الدوائر وتتألب عليه لتقسيم بلاده بينها أو لادخالها في دوائر نفوذها وحمايتها ، وقد كاد اسم « الرجل المريض » يغلب على هذه الدولة ويصبح

عالما عليا يجهرون به في خطبهم واقوال صحفهم ولايتكلفون كتمانه في معاملاتهم وصفقات التبادل والمساومة بينهم ، وسميت بلادها باسم « تركة الرجل المريض » تعجيلا بقسمتها وتوزيع حصصها عليهم قبل ان يتنازعوها ، اذا وقع القضاء المحتوم بين ساعة وأخرى .

كان اسم « الدولة » يدور على الالسنة بين رعاياها فتنصرف الاذهان الى حاضرها ومصيرها في هذا المركز العجيب الذي يؤذن بالزوال — او بالتبديل على الاقل في كل آونة ، ولا يؤذن بالاستقرار او بالطمأنينه إليه .

ومن ثم أصبحت للدولة مسألة خاصة مستقلة عن مسألة النظم الحكومية او النظم السياسية في ولاياتها.

اصبحت مسألتها مسألة « السلطان » او الامبراطور او امير المؤمنين الذي يتولاها ، واصبحت بنية الدولة التي تتكون منها تابعة للصفة التي يتصف بها ولي الامر ، سلطانا او امبراطورا او امير مؤمنين .

علام تعتمد الدولة في تكوينها ؟ اعلى الاشتات من الإجناس المتفرقة التي لاتجمعها جامعة واحدة؟اعلى الجامعة الطورانية اذا كان لابد لها من جامعة سياسية او روحية تسندها بين اجزائها ؟ اعلى الجامعة الاسلامية ؟ اعلى الوحدة الإئتلافية اعلى التسليم بالواقع وانتظار المجهول في مهاب الاقدار ؟

لابد من مبدأ أساسي من هذه المبادىء يركن اليه صاحب الدعوة الى المستقبل ويبني دعوته عليه .

وقد كان برنامج الكواكبي في هذه المسالة صريحا محدودا لاتخفى منه خافية على من يعتزم العمل فيه ، وكل ماتخذه من الحيطة لهــذا الامر الجلل انه اعلن قواعده وترك نتائجه المحتومة تنكشف في حينها ، وهي غير مجهولة .

وهو يقيم برنامجه في مسألة الدولة والخلافة على هذه القواعد الثلاث :

(١) ان ينفصل الملك عن الخلافة .

(٢) وان تعود الخلافة الى الامة العربية .

٣) وأن تقوم الخلافة على أساس الانتخاب والشورى والتعاون المتبادل على سنة المساواة بين الاقطار الاسلامية :

ويستند في كل قاعدة من هذه القواعد الى مراجعه التاريخية كما يستند الى مقتضيات الضرورة العملية في أحوال العالم الحديث .

فهو يقرر من تحصيله التاريخي أن خلافة بني عثمان لم تنعقد بها بيعة من حكومات المسلمين ولا من رعاياها ، فلا يقبلها ملوك ايران والمغرب وائمة الجزيرة العربية الذين لم يخضعوا لسيادة الدولة التركية ، ولا يذكرها المسلمون في صلاة الجمعة الا حيث يدينون لتلك السيادة في أوضاعهم السياسية . ولم يحدث قبل السلطان محمود العثماني أن تلقب أحد من سلاطين القسطنطينية بلقب الخلافة وامارة المؤمنين : « اذ صار بعض وزرائه يخاطبونه بذلك أحياناً تفنناً في الاجلال وغلواً في التعظيم ثم توسع استعمال هذه الالقاب في عهد ابنيه وحفيديه الى أن بلغ ما بلغه اليوم بسعي أولئك الغشاشين الذين يدفعون ويقودون حضرة السلطان الحالي . للتنازل عن حقوق راسخة سلطانية لاجل عنوان خلافة وهمية مقيد في وضعها بشرائط ثقيلة لاتلائم أحوال الملك معرضة بطبعها للقلقلة والانتزاع والخطر العظيم .. »

ويرى من تحقيقه التاريخي أن ساسة الترك لا يقصدون « غير التعصب السياسي وقيادة الناس الى سياستهم بسهولة ، وارهاب أوربا باسم الخلافة واسم الرأي العام ... »

قال بعد أن بين أن مآرب الملك لعبت في تاريخ الدولة العثمانية على واجبات الخلافة كما تمليها مصالح الامم الاسلامية على من يستطيع رعايتها : « اني اذكر لك انموذجا من اعمال لهم اتوها رعاية للملك وان كانت مصادمة للدين .. فهذا السلطان محمد الفاتح وهو افضل آل عثمان ـ قد قدم الملك على الدين فاتفق سرا مع فرديناند ملك الاراغوان الاسبانيولي ثم مع زوجته ايزابيلا على تمكينهما من ازالة ملك بني الاحمر آخر الدول العربية في الاندلس .. مقابلة ما قامت لديه روما

من خذلان الامبراطورية الشرقية عند مهاجمة مكدونيا ثم القسطنطينية . وهذا السلطان سليم غدر بآل العباس واستقصاهم حتى امه قتل الامهات لاجل الاجنة وبينما كان هو يقتل العرب في الشرق كان الاسبانيون يحرقون بقيتهم في الاندلس، وهذا السلطان سليمان ضايق ايران حتى الجام الى اعلان الرفض .. ثم لم يقبل العثمانيون تكليف نادر شاه لرفع التفرقة بمجرد تصديق مذهب الامام جعفر ، كما لم يقبلوا من (اشرف) خان الافغان اقتسام فارس كي لايجاورهم ملك سني . وقد سعوا في انقراض خمس عشرة دولة وحكومة اسلامية . واعانوا الروس على التاتار المسلمين وهولاندة على الجاوة والهنديين ، وتعاقبوا على تدويخ اليمن .. وبلغت العسكر العثماني المسلمين مرة في صنعاء والزبيدوهم في صلاة العيد .. »

قال : « اليس الترك قد تركوا الاندلس مبادلة وتركوا الهند مساهلة وتركوا الممالك الجسيمة الاسيوية للروسيين وتركوا قارة افريقيا الاسلامية للطامعين وتركوا المداخلة في الصين كأنهم الابعدون » .

ولم يشأ الكواكبي ان يفرق بين ضرورات الواقع وبين دواعي الاختيار في هذه الاعمال ، لإنه نظر الى النتيجة التي يقيم عليها حجته وهي فشل التصدي لواجبات الخلافة مع قيود الملك ومآزق السياسة وصعوبة الوحدة الجامعة بين دول الاسلام .

واذا كان انفصال الخلافة عن الدولة ضرورة قاسرة ومصلحة مختارة فليس اولى بالخلافة من الامة العربية وقد تبسط الكواكبي في سرد الشروط والاسباب التي قضت احوال الحكومات الاسلامية وشعوبها في عصره بملاحظتها ، ولكن الغاية الجوهرية التي لاترتبط بتلك الاحوال تتلخص فيما يلي :

(١) ان يكون الخليفة عربياً .

(٢) وان يكون اختياره بالانتخاب .

(٣) وان تكون وظيفته روحية .

(٤) وان يعاونه مجلس شورى تتمثل فيه جميع الشعوب الاسلامية .

(٥) وان تنفذ وصاياه طواعية في المسائل الدينية . ولاتتعرض في تنفيذها للمشكلات السياسية .

ولابد من التمهيد لقيام الخلافة باعداد الاذهان في العالم الاسلامي لقبول هذا النظام وايثاره على نظم التقاليد التي فرضتها مآرب أصحاب السلطان ودسائس الدعاة المغرضين بعد عصر الخلفاء الراشدين ، وتتصدى لهذه المهمة جماعة منظمة تعمل على اساس الشورى والاختيار وتتخذ مقرها في ميناء متوسط كبور سعيد أو الكويت ، ثم تعلن دعوتها وتبلغها الى ولاة الامور في الاقطار الاسلامية .

ويظهر من تفصيل الخطط التي رسمها الكواكبي للتدرج في تحقيق وظيفة الخلافة على هذه الصورة انه كان شديد الحذر من مقاومة الدول الكبرى التي تعنيها مسألة الخلافة الاسلامية ، وانه افرط في الحذر احيانا فقدم حساب التقية والمجاملة على كل حساب يشغله في حينه ، ولم يخالف الحقيقة حين اهتم بتفسير فريضة الجهاد على النحو الذي يزيل مخاوف الدول ومخاوف الامم من غير المسلمين على التعميم . فقد اصاب حين قال :

« انه ليس في علمـــاء الاسلام مطلقا من يحصر معنى الجهاد في سبيل الله في مجرد محاربة غير المسلمين ، بل كل عمل شاق نافع للدين والدنيا ، حتى الكسب لاجل العيال ، يسمى جهاداً وبذلك يعلمون ان قصر معنى الجهاد على الحروب كان مبنيا على ارادة الفتوحات ... كما اعطى اسم الجهاد مقابلة لاسم الحروب الصليبيـــة .. »

وكذلك اصاب حيث قال : « ان اصـــول الاسلامية لايستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم بل يستلزم الفة ... وان العرب أينما حلوا في البلاد جذبوا اهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم .. »

ولكنه بالغ في دفع الخوف واتقاء المقارمة حين استطرد قائلا ان العرب « لم ينفروا من الامم التي حلت بلادهم وحكمتهم ، فلم يهاجروا منها كعدن وتونس ومصر بخلاف الاتراك ، بل يعتبرون دخولهـــم تحت سلطة غيرهم من حكم الله لانهم يذعنون بكلمة ربهم تعالى شأنه .. (وتلك الايام نداولها بين الناس) . »

ثم كشف عن أسباب تلك المبالغة في التقية حين قال بعد ذلك : « فاذا علم السياسيون هذه الحقائق وتوابعها لايتحذرون من الخلافة العربيه ، بل يرون من صوالحهم الخصوصيةوصوالح النصرانية وصوالح الانسانيةانيؤيدوا قيامالخلافة العربية بصورة محدودة السطوة مربوطة بالشورى على النسق الذي قرأته » .

فالكواكبي « الدبلوماسي » السياسي هنــا أظهر من الكواكبي الثائر . « وأم القرى » هنا أسلوب من العمل غير أسلوب « طبائع الاستبداد » . فان الكواكبي الثائر لم يقبل من المسلم أن يــذعن للغصب والسيطرة في حكومة مسلمة ، ولم يحمد منه أن يستكين لتداول الدول وحكم الايام جهلا بمعنى التسليم للقضاء ، وانما هي مزالق الحيلة لاتؤمن مزلتها في طريق الثورة ولاسلامة من عثراتها قبل استوائها على جادتها المثلى .

على أن الكواكبي الثائر كاد ان يتكشف لقارئه في « أم القرى » وفي صدد الكلام على الخلافة والدول الاجنبية ، حيث قال وهو يتكلم عن القضية الخامسة والاربعين : « اذا صادفت الجمعية معارضة في بعض اعمالها من حكومة بعض البلاد – ولا سيما البلاد التي هي تحت استيلاء الاجانب – فالجمعية تتدرع (اولا) بالوسائل اللازمة لمراجعة تلك الحكومة واقناعها بحسن نية الجمعية . فاذا توفقت لرفع العنت فيها ، والا فلتلجأ الجمعية الى الله القادر الذي لايعجزه شيء ».

ومراد الكواكبي من عبارته هذه واضــح عند من يفهم ان اللجوء الى الله « القادر الذي لايعجزه شيء » يعني كل شيء غــير التسليم والنكوص عن العمل الذي بدأ وتقدم وتمت له أسباب التدابير .

الا ان القارىء يستطيع ان ينفذ الى الغاية الجوهرية في أمر الدولة والخلافة من وراء الخطط أو النماذج العملية التي تصلح لبعض الازمنة ولا تصلح لغيرها ، والتي رسمتها الحوادث للكواكبي ولم يرسمها لنفسه باختياره ، ولعــله كان يعيد

فيها النظر لو تراخى به الاجل ـ فيمحو منها ويثبت ويزيد عليها وينقص منها ، ولا يدعها ـ لخلفائه ـ بأية حال ـ على الصورة التي بقيت لنا بعد نصف قرن من وفاته .

فاذا نفذ القارىء من وراء تلك الخطط الموقوتة الى الغاية الجوهريةفلانزاع في تلك الغاية ولا في الايمان بأن الوصول اليها هو مبعث الدعوة التي اضطلع بها وصمد عليها ، وخلاصتها في كلمات معدودات أن دعوى الخلافة في القسطنطينية لاينبغي ان تعوق الامة العربية عن نهضة الإصلاح والحرية .

النظام السياسي

علوم السياسة أقرب العلوم الى ان تكون « اختصاصاً » للكواكبي بين دراسات عصره . نفهم ذلك من كلامه في مقدمة « طبائع الإستبداد » كما نفهمه في مباحث الكتاب كله ، لإنها مباحث مشروحة على ايجازها لايجول فيها قلم كاتب لم يتوسع في هذه الدراسات .

ولكننا قد علمنا من طبيعة تفكير الكواكبي انه يدرس ليعمل وينفذ ، او ليدل على وسائل العمل والتنفيذ ، فكل ما كتبه في موضوعات العلم السياسي فهو من قبيل « المذكرات الإيضاحية » التي تبين حدود العمل المطلوب وتبين الطريقة التي تتبع في تنفيذه ، وما عدا ذلك من مباحث النظر والتأمل فقد بقيت في كتاباته المعروفة « رءوس موضوعات » لم يتسع له الوقت لاستيفائها ولعله لم يجد من لوازم عمله أن يستوفيها على المنهج المدرسي كما يصنع الباحث الذي يدرس الموضوع ليؤلف فيه او ليضطلع بتعليمه والاقناع به من الوجهة النظرية. وانما احالها بعناوينها المجملة لمن يريد ان يرجع اليها في مصادر التخصص والبيان ليصحح النظر او ليحقق وسائل العمل المتفق .

ومن قبيل هذه المباحث التي تركها « رؤوس موضوعات » في الصفحات الاخيرة من « طبائع الإستبداد » قوله في مبحث الحقوق العمومية : « هل للحكومة صفة المالكية ، ام صفة الإمانة والنظارة على الإملاك العمومية ، مثل الاراضي والمعادن والانهر والسواحل والقلاع والمعابد والاساطيل والمعدات ، ومثل حقوق المعاهدات والاستعمار ، ومثل حقوق اقامة الحكومة وتأمين العدالة وتسهيل الترقي الإجتماعي وايجاد التضامن الإفرادي ، الى غير ذلك مما يحق لكل فرد ان يتمتع به وان يطمئن ؟ »

ومن هذه المباحث قوله عن توزيع السلطة : « هل يجمع بين سلطتين أوثلاث

في ولحد ؟ أم تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها بإتقان ولا يجوز الجمع منعاً لاستفحال السلطة ؟ » .

وقد أثبت من عناوين هذه المباحث خمسة وعشرين عنواناً قال عنها : « ان كلا منها يحتاج الى تدقيــق عميق وتفصيــل طويل وتطبيق على الاحـــوال والمقتضيات الخصوصية » .

ثم مضى قائلا انه ذكر : « هذه المباحث تذكرة للكتـــاب ذوي الألباب وتنشيطاً للنجباء على الخوض فيها بترتيب ، اتباعاً لحكمة اتيان البيوت من أبوابها وان اقتصر على بعض الكلام فيما يتعلق بالمبحث الاخير منها فقط ، أعني مبحث السعي في رفع الاستبداد .

وانما خص هذا المبحث الاخير لأنه يمس فيه الوسيلة العملية التي لا يكفي فيها مجرد التأمل وتقليب وجوه النظر في مختلف الآراء ، وذلك شأنه في كل ما يكتبه عند وجوب التفرقة بين ما يدرس وما يعمل ووجوب التفرقة أيضاً بين ما يشرع في عمله وبين ما يؤجل الى حين ليعمل في أوانه .

ولا ننسى أن الكواكبي كان يكتب ما ينوي اعلانه في بلاد تابعــة للسيادة العثمانية ، سواء منه ما كتبه في حلب قبل هجرته الاخيرة وما كتبه في مصر باسمه الصريح أو باسم مستعار ، فلم يكن في وسعه أن يعلن ما يمنعه القانون ويمنعـــه العرف الشائع بين الناشرين ، ومنهم أصحاب الصحف والمطابع التي تدين بالولاء للدولة صاحبة السيادة ، ولكنه كان يتحرى التعبير عن رأيه بالأسلوب الذي يدل عليه دلالة لاشك فيها دون أن يخرج بالنص المكتوب عن حدوده القانونية ، وعلى صعوبة التعبير البين عن خطط الثورة لم يكن برنامجـــه في مسألة النظام السياسي بالبرنامج المجهول عند قرائه ولو لم يكن منهم من يلقاه ويسمع منه الرأي الصريح فيما يريده وفيما يراه .

فلم يكن أصرح — في حدود القانون — من دعوته للعرب الى الاستقــلال بحكم انفسهم حيث يقول في « ام القرى » ان التطابق في الجنس بين الراعـي

والرعية « يجعل الامة تعتبر رئيسها زلماً فتتفانى دون حفظه ودون حكم نفسها بنفسها حيث لايكون لها في غير ذلك فلاح ابدا كما قال الحكيم المتنبي .

وانما النــاس بالملوك ولا يفلح عرب ملوكها عجـم

ومما لاخلاف فيه ان من اهم حكمة الحكومات ان تتخلق بأخلاق الرعيـة وتتحد معها في عوائدها ومشاربها »

بل هو يصرح بما هو اقوى من ذلك وادل على رايه في حكومة عصـره التركية . اذ يقول ان التطابق بين الراعي ورعيته من العرب هو الواقع الممكن الذي لا محيد للحاكم عنه وليس قصارى الأمر فيه انه سياسة حسنة او نصيحة مستحبه ، ويستشهد بذلك بالحكومات ـ غير العربية ـ التي حكمت العرب قبل الترك العثمانيين اذ يذكر آل بويه والسلجوقيين والأيوبيين والغوريـين والأمراء الجراكسة وآل محمد على ، ثم يقرر : « فانهم ما لبثوا ان استعربوا وتخلقـوا باخلاق العرب وامتزجوا بهم وصاروا جزءاً منهم . وكذلك المغـول التاتار صاروا فرساً وهنوداً فلم تشذ في هذا الباب غير المغول الأتراك اي العثمانيـين . فانهم بالعكس يفتخـرون بمحافظتهـم على غيرية رعاياهم لهم فلم يسعـوا باستتراكهم كما انهم لم يقبلوا ان يستعربوا . والمتاخرون منهم قبلوا ان يتفرنسوا او يتألمنوا ، ولا يعقل لذلك سبب غير شديد بغضهم يستدل عليه من اقوالهم التي تجري على السنتهم » .

ولا حاجة بالكواكبي بعـد هذا البيان عن ضروره التطابق بين الراعي والرعية الى كلمة صريحة او غامضة لجلاء الوجهة التي ينبغـي ان تنتهـي اليها مساعي العرب في يقظتهم . فلا بد ان يفلحوا .. ولن يفلحوا وهم عرب يملكهم عجم .. وملوكهم القائمون بالأمر لايستعـربون ولا يروقهـم ان « يستترك » رعاياهم ، ومنهم من يؤثر ان يتفرنس ويتألمن ويتجه نحو الغرب ولا يحول وجهته الى قبلة شرقية .

فالغاية الماثلة امام المجاهدين في سبيل اليقظة العربية هي « الاستقلال » واقامة

الدولة التي يقيمها العرب ويرعاها العرب ، والمطالبة في انتظار تحقيق هذه الغاية بغير ما يمكن من وجوه الاصلاح التي تزيل اسباب الخلل في ادارة السلطنة العثمانية واهمها - فيما يهم البلاد العربية - « التمسك بأصول الادارة المركزية مع بعد الأطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الادارة في المركز على احوال تلك الأطراف المتباعدة وخصائص سكانها » .

ويلحق بهذا السبب سببان آخر ان يبدو للنظر لأول وهلة انهما متناقضان لولا انهما يرجعان الى حالتين مختلفتين ، وهما حالة الرعية الشرقية وحالة الرعية الأجنبيه غير العربية ممن تشملهم قوانين الامتيازات او القوانين المحلية المقصورة على بعض الأقاليم .

فالسبب الاول يرجع الى « توحيد قوانين الادارة والعقوبات مع اختلاف طبائع اطراف المملكة واختلاف الاهالي والاجناس والعادات » . ولايخفى ضرر هذا التوحيد من الوجهة الاجتماعية والادارية حيث تتبع « الاجراءات » الواحدة في المقاضاة وتدبير الدواوين بين اطراف دولة تمتد من وادي النهرين الى البحر الابيض ومن البحر الاسود الى خليج عدن ، وتسرى على اقوام بينهم من الاختلاف ما بين الأرمن والجركس والترك والعرب في الحاضرة والبادية .

والسبب الآخر يرجع كما قال الكواكبي الى « تنويع القوانين الحقوقية وتشويش القضاء في الأحوال المتماثلة » .

ففي ظاهر الامر يبدو ان صاحب « ام القرى » يشكو في وقت واحد من توحيد الاجراءات والقوانين ومن تنويعها واختلافها وهي شكوى متناقضة ولكنه تناقض في الظاهر دون الحقيقه كما اسلفنا . لان هذه الشكوى في مؤتمر ام القري خاصة - انما - يثيرها التنويع الذي يقوم على التمييز بين جنس وجنس وطائفة دون طائفة اذعاناً للمعاهدات الاجنبية تارة او مراعاة للمنازعات الطائفية واستبقاء لبواعث تلك المنازعات تارة اخرى ، وقد كان هذا التمييز عرفا شائعاً في نظم الدولة يعم تشريعات الادارة والاحوال الشخصية ويختلف

بالاقليم الواحد بين فئة وفئة وبين عشيرة وعشيرة ، ولايقتصر على الاجانب ولا على الاقاليم التي نشبت فيها الثورات وتدخلت فيها الدول لتقرير نظام الولاية او الادارة فيها .

فالكواكبي كان يشكو في الحالتين من شيء واحد ، وهو مخالفة الشريعة للمصلحة اما بالتسوية حيث تفرق الاحوال اوبالتفرقة حيث تلزم العدالة والمساواة

وربما اضاف الكواكبي شكواه الفنية الى هذه الشكوى الاجتماعية من تلفيق القوانين والاجراءات فانه – وهو الخبير بفقه التشريع – كان ينكر من دعاة التجديد من فقهاء الترك انهم على تقديره لم يحسنوا المحافظة ولم يحسنوا الابتداع ، وان الدولة ترخصت في تبديل قواعد التشريع لغيرضرورة وتشددت في بعضها الاخر كذلك لغير ضرورة « وجاءها أكثر من هذا الخلل في الستين سنة الأخيرة . أي بعد أن اندفعت لتنظيم أمورها فعطلت أصولها القديمة ولم تحسن التقليد ولا الابداع ففشلت حالها ولا سيما في العشرين سنة الاخيرة التي ضاع فيها ثلثا المملكة وخرب الثلث الباقي وأشرف على الضياع ، لفقد الرجال وصرف حضرة السلطان قوة سلطنته كلها في سبيل حفظ ذاته الشريفة وسبيل الاصرار على سياسة الانفراد ».

وقد صرح الكواكبي بالحل الملائم لهذه المشكلات السياسية والقانونية لبلاد العرب ، ولبلاد الدولة عامة ، في اطوار الانتقال ، فقال في هامش الصفحة التي سرد فيها أسباب الخلل من أم القرى ان « من أهم الضروريات ان يحصل كل قوم من أهالي تركيا على استقلال نوعي اداري يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم كما هي الحال في امارات المانيا وولايات امريكا الشمالية ، وكما يفعله الانكليز في مستعمراتهم والروس في املاكهم ».

وفحوى هذا الحل ان يؤخذ الذي عرف يعرف بعد ذلك باسم « اللامركزية » وشعر ساسة الترك انفسهم بضرورته بعد تفكير الكواكبي فيه بسنوات ، فهو – ولا ريب – رائد الدعوة اللامركزية التي جهر بها « حزب الائتلاف والحرية » وضم

اليها انا..نا من زعماء الترك والعرب وبعض الاقوام المشتركين في تركيب السلطنة العثمانية ، وكانوا ينادون بالائتلاف لتكوين السلطنة من الشعوب المتآلفة مع استقلالها بحكوماتها الذاتية وينادون بالحرية لتغليب حقوق الشعوب في سياسة أمورها على حقوق السلطنة المنفردة بالحكومة المركزية ، ويقابلون بذلك دعوة المركزيين المعروفين باسم حزب الاتحاد والترقي يريدون بذلك أن تكون الوحدة المركزية في الدولة غالبة على الائتلاف ، وان تكون حجة « الترقي » بقيادة الرئاسة الحاكمة غالبة على حجة المطالبة بالحرية لكل ولاية على انفراد .

ولا يلجئنا مؤلف « طبائع الاستبداد » الى مراجعة واستنباط للعلم بصفة الحكومة التي يختارها ويسعى اليها. فلا بد ان تكون -- بالبداهة - حكومة غير مستبدة او « حكومة مسئولة » .

اما العنوان الذي يطلق عليها في مصطلحات العلم السياسي فينبغي ان يتوافر لها بين الشروط الكثيرة شرطان على الاقل من شروط الحكومات المسئولة ، وهما ان تكون « ديمقراطية اشتراكية » .

وقد عرف الاستبداد تعريفين يختلفان بعض الاختلاف لفظاً ويتفقان كل الاتفاق في المعنى والنتيجة .

فالاستبداد كما قال في مقدمه طبائع الاستبداد هو : « التصرف في الشئون المشتركة بمقتضى الهوى » .

أو هو كما قال بعد ذلك « تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بلا خوف تبعة » .

ويتمم الاستبداد ـ نظرا وفعلا ـ بقيام الحكومة المسئولة ، وأفضل هذه الحكومات التي تجتمع لها مبادىء الديمقراطية والاشتراكية ، وتتراءى هنا طبيعة التفكير العملي التي تمتزج بآراء الكواكبي في كل مسألة يتسع فيها مجال البحث والمناقشة وتتساوى فيها وجوه النظر عند تحقيق نتيجتها العملية وضمان المصلحة المنشودة بضمان تلك النتيجة .

فليست العبرة عند الرجل العامل بمنافذ الاستبداد ان يتوافر للحكومة شكل

من أشكال الدستور وصورة من صور الحقوق الكثيرة التي ترشح أفراد الرعية للنيابة او الانتخاب» وانما المهم في جميع الاشكال على تعدد المصطلحات والدساتير ان يكون ولي الامر مسئولاً عن عمله محاسباً عليه ، وأن يمتنع عليه الاستبداد وهو التصرف بالهوى و الامان من التبعة « بلا خشية حساب ولا عقاب محققين » .

فلا يمتنع الاستبداد بامتناع حكومة الفرد ولا يتحقق الحكم الصالح باشتراك الكثرة فيه أو بتأييد الكثرة للحاكمين المتعددين أو كما قال في المقدمة :
« ان صفة الاستبداد كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة او بالوراثة ـ تشمل ايضاً الحاكم الفرد المقيد الوارث او المنتخب متى كان غير محاسب . وكذلك تشمل حكومة الجمع ولو منتخباً . لان الاشتراك في الرأي لايدفع الاستبداد وانما قد يعدله نوعاً ، وقد يكون أحكم وأضر من استبداد الفرد ، ويشمل أيضاً الحكومة الدستورية المفرقة فيها قوة التشريع عن قوة التنفيذ . لان ذلك أيضاً لايرفع الاستبداد ولا يخففه مالم يكن المنفذون مسئولين لدى المشرعين وهؤلاء مسئولون لدى الامة التي تعرف ان تراقب وتؤدي الحساب »

ولا يمتنع الاستبداد في شكل من اشكال الحكومة مع غفلة الامة وقدرة الحاكمين على تضليلها والتمويه عليها . قال : « انه مامن حكومة عادلة تأمن المسئولية والمؤاخذة بسبب من أسباب غفلة الامة او اغفالها لها الا وتسارع الى التلبس بصفة الاستبداد ، وبعد أن تتمكن فيه لاتتركه وفي خدمتها شيء من القوتين الهائلتين المهولتين : جهالة الأمة والجنود المنظمة .

ومن علامات الحكومة الصالحة التي يتعذر عليها الاستبداد في رأي الكواكبي أن يشترك فيها من عناهم القرآن الكريم بأهل الذكر واصطلح الفقهاء على تسميتهم بأهل « الحل والعقد » من قادة الامة وهداتها . قال بلسان الامام الصيني في أم القرى : « وهؤلاء الذين نسميهم عندنا بالحكماء هم الذين يطلق عليهم في الشريعة الاسلامية اسم أهل الحل والعقد الذين لاتنعقد الامامة شرعاً الا ببيعتهم ، وهم خواص الطبقة العليا في الامة الذين امرالله عز شانه نبيه بمشاورتهم في الامر

لانهم رؤساء الامة ووكلاء العامة والقائمون في الحكومة الاسلامية مقام مجالس النواب والأشراف في الحكومات المقيدة ».

واذا اشار الكواكبي الى الطبقة العليا في (أم القرى ، او (طبائع الاستبداد) لم يدع أحداً من قرائه يفهم انها الطبقة العليا بالالقاب او الطبقة العليا بالميراث، لأنه يسمي أصحاب الالقاب من خدام الاستبداد (بالمتمجدين) او ادعياء المجـــد ويقول لن هذا التمجد (خاص بالإدارات الاستبدادية لأن الحكومة الحرة التي تمثل عواطف الامة تأبى كل الاباء اخلال التساوي بين الافراد الا لموجب حقيقي فلا ترفع قدر أحد منها الا اثناء قيامه في خدمتها ، اي الخدمة العمومية ، كما انها لاتميزه بوسام او تشرفه بلقب الا اعلانا لخدمة مهمة) .

وانما يكون التمجد كما قال : « ان يتقلد الرجل سيفاً من قبل الجبار يبرهن به على أنه جلاد في دولة الاستبداد ، أو يعلـق على صدره وساماً مشعـــراً بما وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان ، أو يتحلى بسيور مزركشته تنبىء بأنه صار أقرب الى النساء منه الى الرجال . وبعبارة أوضح وأخصر هو أن يصير الانسان مستبداً صغيراً في كنف المستبد الأعظم » .

وطبقة الميراث ، ما لم يميزها العلم والخلق الرفيع ـ هي جرثومـــة البلاء كما قال ، وأبناؤها « هم الأكثر عـــدداً والأهم موقعاً وهم مطمـــح نظر المستبد في الاستعانة وموضع ثقته » .

قال من كلامه عن الاستبداد والمجد ان هؤلاء الأصلاء « هم جرثومة البلاء في كل قبيلة ومن كل قبيل ، لأن بني آدم داموا اخوانا متساوين الى ان ميزت الصدفة بعض أفرادهم بكثرة النسل فنشأت منها القوات العصبية وتنشأ من تنازعها تميز أفراد على أفراد ، وحفظ هذه الميزة أوجد الأصلاء .. فالأصلاء في عشيرة أو أمة اذا كانوا متقاربي القوات استبدوا على باقي الناس وأسسوا حكومة أشراف ومتى وجد بيت من الاصلاء يتميز كثـــيراً على باقي البيـــوت يستبـــد وحده ويؤسس الحكومة الفردية المقيدة اذا كان لباقي البيوت بقية بأس ، أو المطلقة اذا لم يبق أمامه من يتقيه »

ثم قال : « اذا لم يوجد في أمة أصلاء بالكلية ، أو وجد ولكن كان لسواد

الناس صوت غالب ، أقامت تلك الأمة فعلا أو حكما لنفسها حكومة انتخابية لا وراثة فيها ابتداء ، ولكن لا يتوالى بضع متولين الا ويصير انسالهم أصلاء يتناظرون ، كل فريق منهم يسعى لاجتذاب طرف من الأمة استمدادا للمغالبة واعادة التاريخ الأول .. »

فالطبقة العليا ـ في تعبير الكواكبي ـ لاتعنى طبقـة من طبقات المظاهر المصنوعة ولا المظاهر الموروثة : لاتعنى حملة الالقاب والرتب التي يخلعها الحاكم المطلق على خدامه وعبيد سلطانه ، ولاتعنى أصحاب الوجاهة المنقولة من الاسلاف الى الاعقاب دون أن ينتقل معها سبب من أسباب الوجاهة النافعة . وانما الطبقة العليا في تعبير صاحب « طبائع الاستبداد » ، « وأم القرى » . هي الطبقة التي استعدت بكفايتها ودرايتها لقيادة الامة والاضطلاع « بالخدمة العمومية» والسبق الى تكاليف العمل والمعرفة ، تتولاها وكالة عن جمهرة الامة ، ولا بد في ولايتها من صوت غالب لسواد الامة على أية حال كما يؤخذ من إحصائه لاسباب فساد الحكومة فيما جمعه من هذه الاسباب السياسيه والدينية والاخلاقية في فصل خاص ألحقه بفصول أم القرى .

وأيا كان مفاد « الطبقة » في تعبير الكواكبي خاصة فقوام النظام الصالح كله أمران : أن تتساوى الطبقات في الحقوق القانونية ، وأن تتقارب في الثروة ودرجات المعيشة ،

فلا مناص من اعداد الشعوب لنيل « الاخوة العمومية بالتجارب بين الافراد والقناعة بالمساواة الحقوقية بين الطبقات » .

ولا مناص من توزيع الثروة توزيعاً يمتنع به التفاوت ، فان الاستبداد كما قال في طبائع الاستبداد هو الذي جعل « رجال السياسة والاديان ومن يلتحق بهـم وعـددهم لايتجاوز الخمسة في المائة يتمتعـون بنصف ما يتجمد من دم البشر أو زيادة » .

قال : « وان أهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشرهـين والمحتكرين وأمثال هذه الطبقة ـ ويقدرون كذلك خمسة في المائة ـ يعيش أحدهم بمثـل ما يعيش به العشرات أو المئات أو الالوف من الصناع والزراع ، وهذه القسمة

المتفاوتة بين بني آدم وحواء الى هذه النسبة المتباعدة هي قسمة جاء بها الاستبداد السياسي » كما قال وكرر المقال مما نعود الى بيان رأيه المفصل فيه عند الكلام على برنامجه المختار لاصلاح الحياة الاقتصادية .

ويقتضي التساوي بذلك الطبقات على هذا المبدأ ألا تستأثر طائفة من الامة بانجاب أهل العلم والدراية ، بل يكون حكماء الامة كما قال بلسان الحكيم الصيني - « من أي طبقة كانت من الامة . اذ قضت سنة الله في خلقه ألا تخلو أمة من الحكماء » .

ولا فرق بين طائفة وطائفة في التخلق بأخلاق الاستبداد متى قام الامر على الحكم المطلق وامتنعت المساواة في الحقوق بين الناس : « فان الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها من المستبد الاعظم الى الشرطي الى الفراش الى كناس الشوارع ، ولا يكون كل صنف الا من اسفل اهل طبقته اخلاقاً . لان الاسافل لايهمهم جلب محبة الناس . انما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بانهم على شاكلته وانصار لدولته ، شرهون لاكل السقطات من ذبيحة الامة . وبهذا يأمنهم ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه . هذه الفئة المستبدة يكثر عددها ويقل حسب شدة الاستبداد وخفته ، فكلما كان المستبد حريصاً على العسف احتاج الى زيادة جيش المتمجدين العاملين له ، والمحافظين عليه واحتاج الى الدقة في اتخاذهم من أسفل السافلين الذين لاأثر عندهم لدين أو وجدان ، واحتاج الى حفظ النسبة بينهم في المراتب بالطريقة المعكوسة وهي ان يكون اسفلهم طباعاً اعلاهم وظيفة وقرباً ».

والكواكبي يذكر السلف الصالح للاقتداء به في اخلاق الرعاة والرعايا ، ولكنه يحذر قارئه ويعيد التحذير مرة بعد مرة من الخلط بين الاقتداء باخلاق الحاكمين الاولين وبين الدعوة الى تقديس اولئك الحاكمين او احاطتهم بهالة من عصمة الربوبية او الرسالة . فانه - مع تقريره ان الخلافة الاسلامية لم تثبت من قبل لغير الخلفاء الراشدين وآحاد معدودين من أمثال عمر بن عبد العزيز - يرى ان الفصل بين الملك والخلافة ضرورة لامحيص عنها كي يتسنى للرعية ان يحاسبوا ولي الامر ويقيسوا ولاية الامر على اساس الحكومة المسئولة ، وقد يحال

بينهم وبين ذلك بانتحال صفة القداسة التي يعتصم بها الخليفة من محاسبة رعاياه ومراجعة الامة في مجموعها لسياسة الدولة .

ولا اكتراث للصور والاشكال في كل ماتقدم من قواعد الحكم وأنظمته وسائر شروطه . فكل صورة من صور الحكم حسنة نافعة اذا تحققت فيها المحاسبة ولحقت فيها تبعات الحكم فعلا بمن يتولاه ، وكل أمة قادرة على محاسبة حكامها اذا عمت فيها المساواة الحقوقية وامتنع فيها التفاوت البعيد في الارزاق والاقدار وانجابت عنها غشاوة الغفلة بين عامة أهلها وارتفع الى مكان القيادة من استعد بكفايته ودرايته لقيادتها ، كائنا ما كان منشؤه من عامة طبقاتها .

النظام الاقتصادي

قدمنا في الكلام على النظام السياسي ان الكواكبي يعتبر التفاوت في الثروة دعامة من أقوى دعائم الاستبداد، لانه يسمح لاصحاب النفوذ الديني او الدنيوي - وهم لايزيدون على خمسة في المائة من جملة السكان بان يستأثروا لأنفسهم بنحو نصف الثروة العامة .

وهو ينكر مثل هذا الانكار ان يحصل مثل هذا التفاوت باية ذريعة من الذرائع ولو كانت ذريعة العمل والصناعة ، فليس من الجائز أن يعيش انسان واحد بمثل مايعيش به المئات او الألوف لأنه يتفوق على غيره بعمل بارع او صناعة نفيسة ، ولا لأنه يحسن الوساطة والمداورة في سوق البيع والشراء او في سوق الفكر والضمير . « فهناك اصناف من الناس لايعملون الا قليلا . انما يعيشون بالحيلة كالسماسرة والمشعوذين باسم الادب والدين »

والمال على العموم « لايجتمع في ايدي الاغنياء الا بانواع من الغلبة والخداع» وليس من شأن التفاوت في القدرة والهمة ان يمنح انسانا واحداً مايقوم بنفقات الالوف من الناس ، وليس هذا التفاوت مما يحتاج اليه العامل المقتدر لاتقان عمله او يحتاج اليه المجتهد الطموح لاستنهاض همته واشباع طموحه ، بل ربما كان فيه مدرجة للغواية والبطالة ومدعاة الى الاسراف والاسفاف .

وليس المطلوب ان يبطل التفاوت بين الناس في المعرفة والذكاء ولا ان يبطل التفاوت بينهم في المساعي والجهود ؛ ولا يقتضى الامر كما قال(ان يتساوى العالم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النافع او الصنعة المفيدة بذلك الجاهل النائم في ظل الحائط ، ولا ذلك التاجر المجتهد المخاطر بالكسول الخامل ،ولكن

العدالة تقتضي غير ذلك التفاوت ، بل تقتضي الإنسانية ان يأخذ الراقي بيد السافل فيقربه من منزلته ويقاربه في معيشته ويعينه على الاستقلال في حياته ».

وأيا كان جهد المجتهد وعلم العالم فلا يجوز ان يزيد الرزق على الحاجة تلك الزيادة المفرطة التي تسمح لطائفة من الأمة بتسخير جميع طوائفها : « لان افراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الانسان . وهذا معنى الآية : — ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى — .. فضرر الثروات الافرادية في جمهور الامم اكبر من نفعها . لانها تمكن الاستبداد الداخلي فتجعل الناس صنفين : عبيداً واسياداً ، وتقوي الاستبداد الخارجي فتسهل للأمم التي تغني بغناء افرادها التعدي على حرية واستقلال الامم الضعيفة .. » .

وتظهر لنا سعة اطلاع الكواكبي في مسائل الإصلاح من احاطته بأوائل الاعمال والاراء التي كانت تحسب في اواخر القرن الماضي طليعة سابقة ، بل طليعة متهجمة في مجال الإصلاح الاقتصادي والمذاهب الاشتراكية، فذكر تحديد الملكية الزراعية وذكر تأميم المرافق العامة ومضت بعدة خمسون سنة قبل ان يتيسر تنفيذ هذه الاراء في بلادنا الشرقية .

قال : « هذه ايرلنده مثلا قد حماها الف مستبد مالي من الانكليز ليتمتعوا بثلثي او ثلاثة أرباع ثمرات أتعاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة ايرلنده . وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالا وستفوقها مآلا . وكم من البشر في اوربا المتمدنة — وخصوصاً في لندن وباريس — لايجد احدهم أرضاً ينام عليها متمدداً ، بل ينامون في الطبقة السفلى من البيوت حيث لاينام البقر ، وهم قاعدون صفوفاً يعتمدون بصدورهم على حبال من مسد منصوبة افقية ، يتلوون عليها يمنة ويسرة » .

قال : « وحكومة الصين المختلة النظام في نظر المتمدنين تحرم قوانينها أكثر من مقدار معين من الأرض لايتجاوز العشرين كيلو متراً مربعاً أي نحو خمسة أفدنة مصرية أو ثلاثة عشر دونماً عثمانيا ، وروسيا المستبدة القاسية في عرف اكثر الأوروبيين وضعت أخيراً لولاياتها البولونية والغربية قانوناً أشبه بقانون الصين ،

وزادت عليه أنها منعت سماع دعوى دين غير مسجل على فلاح ، ولا تأذن لفلاح ان يستدين اكثر من نحو خمسمائة فرنك ، وحكومات الشرق اذا لم تستدرك الأمر فتضع قانونا من قبيل قانون روسيا تصبح الاراضي الزراعية بعد خمسين عاماً او قرن على الاكثر ، كايرلنده الإنجليزية المسكينة » ..

وقال بعد ان قرر ان الشرط الاول لإحراز المال ان يأتي من بذل الطبيعة أو بالمقايضة أو في مقابل عمل أو مقابل ضمان :

«والشرط الثاني ألا يكون للتمول تضييق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال والضعفاء والتغلب على المباحات مثل امتلاك الاراضي التي جعلها خالقها مرحاً لكافة مخلوقاته .. » .

وعلى هذا السبق الى الإحاطة بالاراء المستحدثة يتبين من ثنايا اقواله العامة في الاقتصاد أنه كان يتقصى معارفه الاقتصادية من أصولها التي تقدم بها الزمن أحقاباً طوالا قبل عصر الميلاد . فلا شك في اطلاعه على قواعد الاقتصاد السياسي فيما كتبه أرسطو أو فيما نقل عنه . فانه يحصر اسباب الرزق في مواردها الثلاثة وهي الزراعة والصناعة والتجارة ، ويعرف هذه الموارد كما عرفها ارسطو حيث يقول عن الزراعة انها استخراج ثمرات الطبيعة ،وعن الصناعة انها تهيئه تلك المواد للانتفاع بها ، وعن التجارة انها توزيعها على الناس ، « وكل وسيلة خارجة عن هذه الاصول وفروعها الاولية فهي وسائل ظالمة لاخير فيها ..» .

وعند الكواكبي ان الإنسان النافع لقومه لابد ان يؤدي عملا من هذه الاعمال في اصولها وفروعها التي لاتزال الى اليوم مورد الرزق المشروع في عرف خبراء الاقتصاد والسياسة ، وعلى كل فرد من افراد الامة « متى اشتد ساعده او ملك قوت يومه ، النصاب على الاكثر ، ان يسعى لرزقه بنفسه او يموت جوعاً » .

ثم يعطف فيقول : « وقد لايتأتى ان يموت الفرد جوعاً اذا لم تكن حكومته مستبدة تضرب على يده وسعيه ونشاطه ..» .

فاذا حدث العجز عن كسب الرزق لسبب قاهر غير الكسل والتقصير فالامة مسئولة عن ازالة هذا العجز أو معونة المبتلين به على المعيشة التي لايقدرون على تحصيلها ! » فالعدالة المطلقة تقضى أن يؤخذ قسم من مال الاغنياء ويرد على الفقراء بحيث يحصل التعديل ولا يموت النشاط للعمل » .

وهذه سياسة تتحراها أمم الغرب الحديثة ايثاراً للسلامة بعد أن وضح لها وبال العاقبة من جراء الظلم في توزيع الثروة . ولكنها فريضة يقررها الاسلام ديناً ويعين عليها اتباع أحكامه . لانه يقرر صرف العشور والزكاة في المصارف العامة ومنها سداد الديون : « ولا يخفى على المدقق أن جزءا من أربعين من رءوس الاموال يقارب نصف الارباح المعتدلة باعتبار أنها خمسة بالمئة سنوياً » .

ويقول الكواكبي – ولعله يجنح في ذلك الى الاخذ بالمذهب الظاهري – ان الارض الزراعية ملك عام للامة يستنبتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط ، وليس عليهم غير العشر أو الخراج الذي لا يجوز ان يتجاوز الخمس لبيت المال » .

فالمعيشة الاشتراكية – في حكم الدين والسياسة الرشيدة – هي – ابدع ما يتصوره العقل .. لولا ان البشر لم يبلغوا بعد من الترقي ما يكفى لتوسيعهم نظام التعاون والتضامن في المعيشة العائلية الى ادارة الامم الكبيرة .. »

وعلى هذا يتلخص برنامج الكواكبي الذي اختاره لتدبير الثروة العامة في الاشتراكية التي تقوم على المبادىء التالية :

(١) تعميم العمل المثمر بين افراد الامة وتحريم الكسب بغير عمل مشروع.

(٢) اجتناب التمييز بين افراد الامة بغير مزية لازمة للخدمة العامة .

(٣) اجتناب التفاوت المفرط في توزيع الثروة بين الافراد اياً كان حظهم من التفاوت في الكفايات والاعمال .

(٤) قيام المجتمع على التعاون والتضامن بين العاملين فيه ، وازالة اسباب

العجز عـــن الكـسب او معونة العاجزين عنه لضرورة من ضـــرورات المرض والحرمان .

(٥) تأميم المرافق العامة ومنع الاحتـكار . .

وبهذه المبادىء على عمومها يدخل الكواكبي في زمرة الاشتراكيين لامراء ، ويلتقي بأهم المذاهب الاشتراكية في أصل من اصولها الكبرى ، ويكاد ان يجري مع القائلين بالتفسير الاقتصادي للتاريخ في مجال واحد لولا فارق عظيم فيتعريف المال ترتبط به فوارق كثيرة .

فالمال عند اصحاب التفسير الاقتصادى مقصور على العملة وما تشتريه .

والمالعندالكواكبيهو« كل ما ينتفع به في الحياة » ..«فالقوةمال ،والوقت مال ، والعقل مال ، والعلم مال ، والدين مال ، والثبات مال ، والجمـال مال ، والترتيب مال ، والشهرة مال .. »

نعم . وكل ما يجري فيه المنع والبذل كما يقول صاحبالقانون،اوتستعاض به القوة كما يقول صاحب السياسة ، او تحفظ به الحياة الشريفة كمايقولصاحب الاخلاق ، فهو مال

و « المقصود من المال هو احد اثنين لا ثالث لها وهما تحصيل لذة او دفـع الم .. والحكم العدل في طيب المال وخبيثه هو الوجدان الذي خلقه الله صبغة للنفس وعبر عنه في القرآن بالهامها فجورها وتقواها .

والوجدان هو مرجع الاختيـــار اولا وآخراً ، بين المال الحـلال والمال الحرام » .

التربية القومية

تفيد كلمة التربية في كتابي الكواكبي مقصدين احدهما التربية العامة وتشمل كبار الامة وصغارها ، وهي التي تتكفل بتهذيب الصفات القومية وتوفير عدة الامة من الاخلاق والعادات جيلا بعد جيل .

والآخر تربية الناشئين في المدارس ومعاهد التعليم وتزويدهم بما ينفعهم وينفع امتهم في اعمالهم الخاصة واعمالهم المشتركة .

وعنده ان الحكومات المنتظمة كما قال في طبائع الاستبداد «تتولى ملاحظة تربية الامة من حين تكون في ظهور الآباء . وذلك بأن تسن قوانين النكاح ثم تعتني بوجود القابلات والملقحين والأطباء ثم تفتح بيوت الايتام اللقطاء ثم المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائي الجبري الى اعلى المراتب . ثم تسهل الاجتماعات وتمهد المراسح وتحمى المنتديات وتجمع المكتبات والاثار وتقيم النصب المذكرات وتضع القوانين للمحافظة على الاداب والحقوق وتسهر على حفظ العادات القومية وانماء الاحساسات الملية وتقوى الامال وتيسر الاعمال وتؤمن العاجزين عن الكسب من الموت جوعاً ، الى ان تقوم باحتفالات جنائز ذوي الفضل على الامة .. »

وقد الف الكواكبي « أم القرى » قبل تأليفه « طبائع الاستبداد » فأحصى بلسان المسلم الانجليزي بعض مقومات التربية العامة التي يعنى بها الغربيون وهي بعبارته :

« تخصيصهم يوماً في الاسبوع للبطالة والتفرغ من الاشغال الخاصة لتحصل بين الناس الاجتماعات وتنعقد الندوات فيتباحثون ويتناجون ».

« وتخصيصهم أياماً يتفرغون فيها لتذاكر مهمات الأعمال لأعظام رجالهم الماضين تشويقاً .

« واعدادهم في مدنهم ساحات ومنتديات تسهيلا للاجتماع والمذاكرات والقاء الخطب وابداء التظاهرات .

« واتخاذهم المتنزهات الزاهية العمومية واجراء الاحتفالات الرسمية والمهرجانات بقصد السوق للاجتماعات .

« واتخاذهم محلات التشخيص المعروف بالكوميديا والتياترو بقصد اراءة العبر واسترعاء السمع للحكم والوقائع ولو ضمن أنواع من الخلاعة التي اتخذت شبا كا لمقاصد الجمع والاسماع ويعتبرون ان نفعها اكبر من الخلاعة .

« ومنها اعتناؤهم غاية الاعتناء بتعميم معرفة تواريخهم الملية المفصلة المدمجة بالعلل والاسباب لحب الجنسية .

« ومنها حرصهم على حفظ العاديات المنبهة وادخار الآثار القديمة المنوهة واقتناء النفائس المشعرة بالمفاخر .

« ومنها اقامتهم النصب المفكرة بما نصبت له من مهمات الوقائع القديمة .

« ومنها نشرهم في الجرائد اليومية كل الوقائع والمطالعات الفكرية .

« ومنها بثهم في الاغاني والنشائد الحكم والحماسات ، الى غير ذلك من الوسائل التي تنشىء في القوم نشأة حياة اجتماعية .

ولا تتم في الامة تربية قومية بغير تعليم المرأة كما قال في أم القرى : « ان ضرر جهل النساء وسوء تأثيره في اخلاق البنين والبنات أمر واضح غني عن البيان ».

وهذا فضلا عن سوء تأثيره في الرجال من الازواج ، لان الرجل كما قال : « يغره أنه أمامها أي أمام زوجته ـ وهي تتبعه فيظن أنه قائد لها والحقيقة التي يراها كل الناس من حولها دونه أنها انما تمشي وراءه بصفة سائق لا تابع ».

ويفسر الكواكبي حجاب المرأة الشرعي بانه « محدود بعدم ابداء الزينة للرجال الاجانب وعدم الاجتماع بهم في خلوة أو لغير لزوم » لان الحجاب بهذا المقدار يكف من سوء تأثير النساء ويفرغ أوقاتهن لتدبير البيوت توزيعاً لوظائف الحياة .

ويرى الكواكبي أن « جهـالة النساء المفسدة للنشأة الاولى وقت الطفولية والصبوة » هي علة من أكبر العلل التي أصابت الحياة القومية في الشرق بـداء «الغرارة» كما سماه وفسره بالقصور عن طلب الاتقان في أعمال العاملين وان كان لهم علم بما يعملون ويشرفون عليه .

فالذين يفهمون صناعاتهم من الشرقيين غير قليلين ، ولكنهم ، يقنعون بالفهم ولا يجيدون العمل ولا يذهبون فيه الى غايته التي تخليه من النقص وتجمع له مزايا الاتقان والوفاء ، لان الفهم شيء يقدرعليه المرء قبل التطبيق ، وانما يظهر الاتقان او النقص عند تطبيق الاعمال التي يتداولها الناس ، فلا يقع الاتقان حيث يثقل أمره على الناس في معاملاتهم وحيث يتهاونون فيه ولا يطلبونه أو يبذلون فيه حقه ، وهنا يظهر اثر التربية القومية في المعاملات ، او يظهر الفارق البعيد بين فهم العمل والعناية باتقانه واجتناب النقص والتقصير فيه .

ومن الامثلة التي اوردها الكواكبي على الغرارة في كبار الاعمال وصغارها أننا نتوهم «أن شئون الحياة سهلة بسيطة فنظن ان العلم بالشيء اجمالا ونظريا بدون ثمرة عليه يكفي للعمل به ، فيقدم أحدنا مثلا على الامارة بمجرد نظره في نفسه أنه عاقل مدبر ، قبل ان يعرف ماهي الادارة علما ويتمرن عليها عملا يكتسب فيها شهرة تعينه على القيام بها ... ويقدم الاخر منا على الاحتراف - مثلا - ببيع الماء للشرب بمجرد ظنه أن هذه الحرفة عبارة على حمله قربة وقدحا وتعرضه للناس في مجتمعاتهم ولا يرى لزوما لتلقى وسائل اتقان ذلك عمن يرشده مثلا الى ضرورة النظافة له في قربته وقدحه وظواهر هيئته ولباسه وكيف يحفظ برودة مائه وكيف يستبرقه ويوهم ليشتهى به ، ومتى يغلب العطش ليقصد المجتمعات ويتحرى منها الخالية له عن المزاحمين ، وكيف يتزلف الناس ويوهم بلسان حاله أنه محترف بالاسقاء كفا للسؤال الى نحو هذا من دقائق اتقان الصنعة المتوقف عليها نجاحه ، وان كانت صنعته بسيطة حقيرة» .

والتخصص في رأي الكواكبي علاج نافع لشفاء الامم الشرقية من هـذه

الفرارة لان والكياسة لاتتحقق في الانسان الا في فن واحد فقط ... وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . فالعاقل من يتخصص بعمل واحد . »

ولا غنى مع التخصص – من الترتيب على انواعه ، ومنهـا ترتيب أقات المرء حسب أشغاله واهمال مالا يتسع الوقت له أو تفويضه الى غيره ومنهـا ترتيب النفقة على قدر الكسب المضمون ، ومنها ترتيب أمر المستقبـل « لاراحة نفسه من الكد في دور العجز من حياته ، فيربي اولاده ذكورا واناثا » ليستغنى كل منهم بنفسه متى بلغ أشده .

ومن الترتيب المطلوب ان يرتب المرء أموره الادبية على نسبة حالته المادية وان يرتب ميله الطبيعي للمجد والتعالى على حسب استعداده فـلا يتطاول الى مقامات لايبلغها .

ويكثر الكواكبي من الحض على التشبه بالغربيين في بعض صفاتهـم القومية واشرفها في تقديره صفات الولع بالمعرفة واليقظة الاجتـماعية والاستعداد بالقوة والمنعة ، ولكنه يشفق من الافراط في الاعجاب بامم الغرب ان يئول الى استكانة الشرقيين أمامها وفقدانهم للثقة بانفسهم في معاملتها ويعيب على غالب أهل الطبقة العليا من الأمة كما قال بلسان السيد الفراتي أو بلسانه هو في ام القرى : « انهم ينتقصون أنفسهم في كل شيء ويتقاصرون عن كل عمل ويحجمون عن كل اقدام ويتوقعون الخيبة في كل أمل ، ومن اقبـح آثار هذا الخور نظرهم الكمال في الاجانب واتباعهم فيما يظنونه رقة وطرافة وتمدنا ، وينخدعون لهم فيما يغشونهم به كاستحسان ترك التصلب في الدين والافتخار به » .

وهو على اعجابه بالمستحسن من اخلاق الاوربيين القومية لايرى انهـم سلموا من العيوب في جملة اخـلاقهم القومية ويأخـذ عليهم كما قال في باب الاستبداد والاخلاق من « طبائع الاستبداد » انهم ماديون « وان الغربي حريص على الاستئثار حريص على الانتقام كأنه لم يبق عنده شيء من المبادىء العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق . فالجرماني مثلا جاف الطبـع

يرى ان العضو الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت ويرى كل الفضيلة في القوة وكل القوة في المال . فهو يحب العلم ولكن لاجل المال ويحب المجد ولكن لاجل المال ، واللاتيني مطبوع على العجب والطيش يرى العقل في الاطلاق والحياة في خلع الحياء والشرف في الزينة واللباس والعز في التغلب على الناس » .

وهذه هي المآخذ التي يقابلها عند الشرقيين كما قال بعد ذلك « إنهم أدبيون يغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب والاصغاء للوجدان والرحمة ولو في غير موقعها واللطف ولو مع الخصم والفتوة والقناعة والتهاون في المستقبل . ولهذا ليس في شأن الشرقي أن يحوز ما يستبيحه الغربي وان حوزه لا يحسن استثماره ولا يقوى على حفظه . ويهتم في شأن ظالمه المستبد فاذا زال لا يفكر فيمن يخلفه » .

بل هو يرى للشرق رسالة باقية في هداية الانسانية وانقاذها من طغيان الحضارة المادية التي يتمادى فيها الغرب ويوشك أن يتردى في هاوية من عواقبها لا نجاة له منها بغير مدد روحاني من الشرق كالمدد الذي تلقاه العالم من أديانه الاولى ، ويناشد الغرب في ختام كتاب طبائع الاستبداد فيقول : « ياغرب ! لا يحفظ لك الدين غير الشرف ان دامت حياته بحريته ، وان فقد الدين يهددك بالخراب القريب » ويسترسل سائلا وكأنه ينظر بلحظ الغيب الى طغيان مذاهب الهدم الجحود : ماذا أعددت للفوضيين اذا صاروا اجيشاً جراراً ؟ هل تعد لهم المواد المفرقعة وقد جاوزت أنواعها الالف ؟ أم تعد لهم الغازات الخانقة وقد سهل استحضارها على الصبيان » ؟

فمسالك التربية القومية فيما أوصى به الكواكبي أنها نهضة مفتوحة العينين تمضي على بصيرة وثقة ولا تستسلم للاعجاب الذليل ولا للمحاكاة العمياء ، وأنها ملكة « تحصل بالتعليم والتمرين والقدوة والاقتباس . أهم أصولها وجود المربين وأهم فروعها وجود الدين » .

وما من أمة تأخذ بأسباب هذه التربية يعييها أن تدرك الغاية من نفعهـــا ، وأولى هذه الاسبـــاب صدق الرجاء في ادراك تلك الغاية كما قال في مقدمات أم القرى : « فلا يهولنا ما ينبسط في جمعيتنا من تفاقم أسباب الضعف والفتور كي لا نيئس من روح الله . ولا نتوهم الاصابة في قول من قال اننـــا أمة ميتــة فلا ترجى حياتنا . كما لا اصابــة في قول من قال اذا نزل الضعـــف في دولة أو أمة فلا يرتفع فهذه الرومان واليونان والامريكان والطليان واليابان وغيرها كلها أمم أمثالنا استرجعت شأنهـــا بعد تمام الضعف وفقد كل اللوازم الادبيـــة للحياة السياسية » .

وانما هي حضانة علم وحضانة اخلاق ، وعشرون سنة تقوم بحضانة العلم ، وأربعون سنة تقوم بحضانة الاخلاق . اذا كانت عشرون سنة كافية لتخريج فئات من المتعلمين يبتدئون الدراسة من مكاتب التعليم الاولى وينتهون بها الى معاهــد التخصص والاحاطة بأدوات العمل والصناعة ، واذا كانت تربية الاخـــلاق انما تتم بتدريب الجيل كله على سنتها وعادتها ، وحدها الاوسط أربعـون سنة تنتقل بالامة من جيل الى جيل .

وتتبع التربية القوميـــة ، بل تسبقها في دور النهضة ، تربيـــة « المربين » أو الزعماء الذين يقودون الامة ويرسمون لها طريقهـا ويصبرون على تدريبهـــا وتصحيح أخطائها .

وقد رأيناه يقول ان للنهضة أصولا أهمها وجود المربـــين ، ونرى أنه — كدأبه في وصاياه الجامعة — لم ينس أن يوصي بالخطة التي تهيء لهـولاء المربـــين أن يروضوا أنفسهم ويعدوا عقولهـــم وضمائرهم للصبر على متاعبهم وتذليـــل عقباتهم ونسيان « ذواتهم » في سبيـــل رسالتهم ، وهي رياضة صارمـــة قوية تجمع بين الشدة العسكرية والزهادة الصوفية ، وخلاصتهـا كما جاء في ختـــام طبائع الاستبداد :

(١) أن يجتهد المريد في ترقية معارفه لاسيما العلوم النافعة الاجتماعية كالحقوق

والسياسة والاقتصاد ، والفلسفة العقلية وتاريخ قومه من جوانبه الجغرافية والطبيعة والسياسية ، مع النظر في الادارة الداخلية والادارة الحربية .

(٢) أن يتقن أحد العلوم التي تكسبه الاحترام بين قومه .

(٣) أن يحافظ على الاداب والعادات .

(٤) ان يقلل الاختلاط بالناس حفظاً للوقار واجتناباً للارتباط القوى بأحد ، كيلا يسقط بسقوطه .

(٥) أن يتجنب مصاحبة الممقوت عند الناس لا سيما الحكام .

(٦) أن يجتهد ما أمكنه في كتم مزيته العلمية عمن دونه ليأمن من غوائل حسدهم ، وانما عليه أن يظهر مزيته لبعض من هم فوقه بدرجات كثيرة .

(٧) أن يتخير من ينتمي اليه من الطبقة العليا ولا يكثر التردد عليه ولا يظهر له الحاجة .

(٨) أن يحرص على الإقلال من بيان آرائه لكيلا تؤخذ عليه تبعاتها .

(٩) أن يحرص على أن يعرف بحسن الأخلاق ولا سيما الصدق والأمانة والثبات .

(١٠) أن يظهر الشفقة على الضعفاء والغيرة على الدين والعلاقة بالوطن

(١١) أن يتباعد من مقاربة المستبد وأعوانه الا بمقدار ما يأمن شرهم ان كان معرضاً لذلك .

قال بعد سرد هذه الصفات : « فمن يبلغ سن الثلاثين - فما فوق حائزاً على الصفات المذكورة يكون قد أعد نفسه على اكمل وجه لاحراز ثقة قومه ... وبهذه الثقة يفعل ما لا تقوى عليه الجيوش والكنوز » .

وربما بالغ الكواكبي في التوصية باجتناب المظهر الذي يثير الحسد ويغري بالمقاومة في دور الدعوة والإقناع وتأليف الأنصار والأعوان ، بل قد بلغ من الحرص على ذلك أنه أنبته في خاتمة أم القرى فجعل « مظهر الجمعية العجز والمسكنة وأوصاها في القضية السابعة والأربعين بألا تقاوم ولا تقاوم الا باساليب

النصيحة والموعظــة الحسنة وتلاطف وتجامل جهدهــامن يعادي مقاصدها.. الا في الضرورات » .

الا انه لا ينكر على المصلح الذي انقادت له زعامة الامة ان يدفعها دفعاً الى التقدم والخير . لانه يقرر غير مرة ان بلاء الشرق « فقـد السراة والهداة . فلا امير عام حازم مطــالع يسوق الامة طوعاً أو كرهاً الى الرشاد ، ولا حكيم معترف له بالمزية والاخلاص تنقاد له الامراء والناس ، ولا تربية قويمة ينتج منهــا رأي عام لا يطرقه تخاذل وانقسام » .

التربية المدرسية

تنظيم التربية المدرسية عمل يستقل به خبراؤه المختصون بالإشراف على ادارة المدارس وتحضير مناهج التدريس ، وفي وسعهم أن يحصروا المعلمين والمتعلمين ويقسموا لمعاهد التربية مراحلها التي تكفي لاوقات الاستعداد واوقات التكملة والانتهاء ، على حسب الحاجة المتجددة الى كل صنف من اصناف الدراسات

وربما بدأت أعمال هؤلاء الخبراء عند نهاية العمل السابق الذي ينصدى له الإمام المصلح لحث الأمة على افتتاح المدارس وتعليم الابناء فليس « تصنيف » المواد المدرسية من عمل الإمام المصلح في دور التنبيه والاستنهاض والحض على طلب العلم كله ، كائناً ما كان .

ولكن الإمام الكواكبي قد نشأ في عصر ثقافي مريج ملتبس المظاهر بالحقائق كثير البقايا من الماضي والطلائع من المستقبل ، فاضطر الى مهمة من مهام « التخليص » بين البقايا والطلائع ووجبت عليه المشاركة في « تصنيف العلوم » المدرسية ليميز على الاقل صفة العالم الجدير بمكانة الإرشادوالهداية وصفة العلم الذي يفضل في رسالته الاولى وهي كفاح الإستبداد والدعوة الى الحرية .

وكذلك كان العلم عنده علمين : علم يطمئن اليه الاستبداد ولا يخاف عقباه وعلم يعرف به الإنسان « أن الحرية أفضل من الحياة » ويدرك به « النفس وعزها والشرف وعظمته ، والحقوق وكيف تحفظ ، والظلم وكيف يرفع ، والإنسانية وما هي وظائفها ، والرحمة وما هي لذاتها » .

ومن الظروف الثقافية التي ألجأته في عصره الى المشاركة العامة في مناهج التربية المدرسية ان العلم كان في بعض المراسم « منحة » حكومية تخلع على طائفة من اصحاب الحظوة من المهد بغير حاجة الى مدرسة ولا الى دروس .

فالطفل من طائفة « زادكان » اي الاصلاء ينعت في المنشور الرسمي عند ولادته « بانه اعلم العلماء المحققين » ... ثم يكون فطيما فيخاطب بانه « افضل الفضلاء المدققين » .. ثم يصير مراهقاً فيعطى المولوية ويشهد له بانه « اقضى قضاة المسلمين معدن الفضل واليقين رافع اعلام الشريعة والدين وارث علوم الانبياء والمرسلين» ... ثم يكبرفيوصف « باعلم العلماء المتبحرين وافضل الفضلاء المتورعين ينبوع الفضل واليقين » الى اخر مافي تلك المناشير من الكذب المبين .

يقول الكواكبي بلسان المولى الرومي بعد ماتقدم : « ولا ريب ان التسعين في المائة من هؤلاء العلماء المتبحرين لايحسنون قراءة نعوتهم المزورة ، كما ان الخمسة والتسعين في المائة من اولئك المتورعين رافعي اعلام الشريعة والدين يحاربون الله جهاراً ويستحقون مايستحقون من الله وملائكته والمؤمنين » .

ثم يقول : « ويكفي حجة عليهم .. تميزهم جميعا بلباس عروس محلى بكثير الفضة والذهب مما هو حرام بالإجماع ولايحتمل التأويل ... اقتبسوا هذا اللباس من كهنة الروم الذين يلبسون القباء والقلنسوات المذهبة عند إقامة شعائرهم وفي احتفالاتهم الرسمية ... »

وامر هؤلاء « العلماء » بغير علم وبغير تعليم مفروغ منه ، لايحتاج من الدولة الى اكثر من المنشورات الرسمية لإعداده وتمكينه من مناصبه ، ولايحتاج من الإمام المصلح في دور النهضة الى اكثر من التنبيه اليه لإسقاط شأنه والإعراض عنه .

لكن الشأن الذي لايغني فيه مثل هذا التنبيه انما كان شأن « العلماء » بنوع من العلم المطلوب في معاهده ولكنه لايلتقي بالاصلاح في طريقه او تلتقي به في بعض الطريق ويتولى عنه في سائرها .

من هؤلاء طائفة العلماء الجامدين على التقليد ، ولا يعنيهم من العلم غير الالمام باشكال الفرائض والشعائر على سنة التقليد الاعمى بغير نظر في حكمتها ومعناها ، ومن هؤلاء من كان يحرم تعليم الابناء دروس الجغرافية الحديثة لانها تعلمهم ان الارض مستديرة وانها تدور حول الشمس وتدور حول نفسها ، خلافاً لما توهموه من معنى انبساط الارض واستقرارها أن تميد بمن عليها ، ومن هؤلاء من كان

يـتريب بالتلفون لان انتقال الصوت على مدى الفراسخ والاميال من فعل الشيطان ولن يؤذن له ان يفعله بعد سليمان !

واحسن من هؤلاء حالا من كانوا يبيحون المعرفـة بالعلوم الحديثة ولكنهم يحرمون اسماءهـا ولايجيزون تدريس الظواهــر الطبيعية إلا ان تسمى « بعلم الخصائص التي أودعها الله سبحانه وتعالى طبائع الاشياء .. » .

واحسن من هؤلاء حالا من كانوا يسمحون بتعليم جميع العلوم ويقصرون النفع منها على تخريج الموظفين وصناع المعامل التي تديرها الحكومـة لخدمة أغراضها ومآربها . وقد كان في بلاد الدولة العثمانية ولاة يفتحون المدارس ويبعثون البعوث الى بلاد القارة الأوربية لتحصيل الصناعات والعلوم العملية والنظرية التي تعينهم على تنظيم الدواوين وادارة مصالح الري والزراعة وتعمير الخزانة العامة لمنفعتهم أو منفعة السلطة الحكومية .

ونشأ مع هذه «التصنيفات المدرسية» صنف من العلوم قد تعم الحاجة اليه في توسيـع نطاق الثقافة وتنويـع أبواب المعرفة ، وهو العـلوم الفكرية الكمالية من فلسفة وبلاغة وتحليل لأصول التشريع والتاريخ وما اليها ، ولكنها مما يحتمل الإرجاء الى مابعد الوثبة الأولى من وثبات الاصلاح في رأي بعض القادة الذين يرتبون أدوار الثقافة بترتيب الضرورات الفردية ، ولا يحسبون حساباً كبيراً للفارق بين ضرورات الأمم وضرورات الأفراد .

في مثل هذا العهد من عهود التنازع على اختيار العلوم المقدمة يلتجيء الامام المصلح الى المشاركة في عمل الخبير المدرسي المتفرغ لتصنيف علوم الدراسة واعداد مناهج التربية في مراحلها المتتابعة .

وقد اضطر الكواكبي الى المشاركة في هذا العمل ، ونظر اليه ـ كعادته ـ من زاويته التي هي أولى عنده بالتقديم من كل زاوية ، وهي ناحية النظر الى الاستبداد وما يخشاه المستبد من العلوم ومالا يخشاه ، وما هو أحق ـ من ثم ـ بالابتدار به والتعويل عليه في كل نهضة تنبعث لطلب الحرية ومكافحة الاستبداد .

قال في طبائع الاستبداد : « المستبد لايخشى علوم اللغة . تلك العلوم التي

بعضها يقوم اللسان و اكثرها هزل وهذيان يضيع به الزمان . نعم لايخاف علم اللغة اذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الالوية أو سحر بيان يحل عقد الجيوش لانه يعرف ان الزمان ضنين بان تلد الامهات كثيراً من أمثال الكميت وحسان . أو أمثال منتسكيو وشيلار ، وكذلك لايخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد ، المختصة بما بين الانسان وربه ، لاعتقاده أنها لاترفع غباوة ولا تزال غشاوة ، وانما يتلهى بها المتهوسون للعلم حتى اذا ضاع فيه عمرهم ، وامتلأت بها ادمغتهم ، وأخذ منهم الغرور ماأخذ فصاروا لايرون علماً غير علمهم فحينئذ يامن المستبد منهم كما يؤمن شر السكران اذا خمر . على انه اذا نبغ منهم البعض ونالوا مزية بين العوام لايعدم المستبد وسيلة لاستخدامهم في تاييد أمره ومجاراة هواه في مقابلة أنه يضحك عليهم بشيء من التعظيم ويسد افواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد .

ويقول الكواكبي بلسان الرياضي الكردي في أم القرى : « ان السبب العام هو ان علماءنا كانوا اقتصروا على العلوم الدينية وبعض الرياضيات وأهملوا باقي العلوم الرياضية والطبيعية التي كانت اذ ذاك ليست بذات بال ولا تفيد سوى الجمال والكمال . ففقد أهلها من بين المسلمين واندرست كتبها وانقطعت علاقتها فصارت منفوراً منها . والمرء عدو ماجهل ، بل صار المتطلع اليها منهم يفسق ويرمى بالزيغ والزندقة ، على حين أخذت هذه العلوم تنمو في الغرب ، وعلى كر القرون ترقت وظهرت لها ثمرات عظيمة في كافة الشئون المادية والأدبية » .

فعلوم الرياضة والطبيعة التي كانت قبل بضعة قرون مجموعة من المعادلات النظرية والخواطر الفكرية هي التي تطورت بها نهضة الثقافة في الغرب فأصبحت في طليعة علوم القوة والعمل ، وقام عليها تقسيم المتخصصين للكشف والاختراع واستطلاع حقائق المادة واستنباط القوانين التي تحكمها وتفسرها .

ولازمتها علوم نظرية ولكنها لازمة لتوسيع الثقافة العامة ولا سيا ثقافة القادة المتطلعين الى كفالة النهضة في أوائلها ، ولهذا يوصى الشاب الذي يتطلع الى هذه القيادة أن «يوسع معارفه مطلقاً» ولا سيا في العلوم الاجتماعية كالحقوق والسياسة

والاقتصاد والفلسفة العقلية والتاريخ والجغرافية والادارة الداخلية والادارة الحربية .. وسائر ماتسميه في هذا العصر بالمعلومات العامة .

واذا اراد هذا الشاب ان يكسب في قومه موقعاً محترماً فلا غنى له مع سعة معلوماته العامة من الاختصاص باحد العلوم التي يشعر الناس بقدرها كعلم الدين او الطب او الانشاء او الحقوق .

على أن التربية المدرسية ـ تربية أبناء الأمة ـ تبدأ قبل المدرسة ولا تنتهي بانتهائها كما قال في طبائع الاستبداد : (ان التربية تربية الجسم وحده الى سنتين وهي وظيفة الأم وحدها ، وتربية النفس الى السابعة وهي وظيفة الأبوين والعائلة معاً ، ثم تضاف اليها تربية العقل الى البلوغ وهي وظيفة المعلمين والمدارس ثم تأتي تربية القدوة بالاقربين والخلطاء الى الزواج وهي وظيفة الصداقة ثم تأتي تربية المقارنة وهي وظيفة الزوجين الى الموت او الفراق) .

فالتربية الفردية ، على هذا ، قصة محبوكة الطرفين بين حجر الأمومة في الطفولة الباكرة وبين كنف الزوجية بعد استواء السن وتقدمها .. لا جرم يكثر الحض في كلام الكواكبي على تصحيح وظيفة المرأة في الحياة والتحذير من جهلها وسوء تربيتها والانحراف بها عن سوائها ، فان النساء كما جاء في طبائع الاستبداد اقتسمن مع الرجال اعمال الحياة قسمة ضيزى ..«وجعلن الشجاعة والكرم سيئتين فيهن محمدتين في الرجال ، وجعلن نوعهن يهين ولا يهان ويتظلم او يظلم فيعان ، وعلى هذا القانون يربين البنات والبنين ويتلاعبن بعقول الرجال كما يشأن... ومن المشاهد أن ضرر النساء بالرجال يترقى مع الحضارة والمدنية على نسبة الترقي المضاعف . فالبدوية تشارك الرجل مناصفة في الاعمال والثمرات فتعيش كما يعيش ، والحضرية تسلب الرجل لاجل معيشتها وزينتها اثنين من ثلاث وتعينه في اعمال البيت ، والمدنية تسلب ثلاثة من اربعة وتود الا تخرج من الفراش ، وهكذا تترقى بنات العواصم في اسر الرجال . وماصدق بالمدينة الحاضرة في اوربة ان تسمى المدنية النسائية لان الرجال فيها صاروا انعاماً للنساء » .

الاخـلاق

يكتب الكواكبي في جميع مباحثه بقلم الباحث المحلل الذي يزن آراءه بميزان المنطق العملي والتجربة العلمية ، وينحوا هذا النحو في كتابته عن الاخلاق وفي كتابته عن السياسة الحاضرة او التاريخ الغابر ، ولكنه يصل الى بعـض الصفات في سياق كلامه على الاخلاق فيخيل اليك انه يود لو يدع القلم جانبا ليأخذ بيـده ريشة النغم ويترنم وهو يتكلم ، واول هذه الصفات صفة الارادة وصفة الحرية، وسائر الصفات التي تلغي الاستبداد او يلغيها الاستبداد .

يقول في باب الاخلاق من طبائع الاستبداد : « ماهي الارادة ؟ هـــي ام الاخلاق . هي ما قيل فيه تعظيما لشأنها : لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الأرادة . هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النبات في تعريفـه بأنه متحرك بالارادة . فالاسير اذن دون الحيـــوان لانه يتحرك بارادة غـــيره لا بارادة نفسه » .

ثم يقول في وصف الاسير مسلوب الارادة : « لا نظام في حياته فلا نظـام في اخلاقه . قد يصبح غنياً فيضحي شجاعاً كريما وقد يمسى فقيراً فيبيـت جبانا خسيساً ، وكذا كل شئونه الفوضى لا ترتيب فيها ، فهو يتبعها بلا وجهة . اليس الاسير قد يبغي فيزجر او لايزجر ، ويبغى عليه فينصر او لاينصر ، ويحســن فيكافأ او يرهق ويسيء كثيراً فيعفى وقليلا فيشنق ، ويجوع يوما فيضـــوى ويخصب يوما فيتخم ، ويريد اشياء فيمنع ويأبى شيئاً فيرغم .. »

ومما قاله عن الحرية في ام القرى : « ان البلية فقدنا الحرية . وما ادرانا ما الحرية ؟ هي ما حرمنا معنـــاه حتى نسيناه « وحرم علينـا لفظه حتى استوحشناه » .

ثم قال : « ان الحرية اعز شيء على الانسان بعد حياته . . بفقدانها تفقد الامال وتبطل الاعمال وتموت النفوس وتتعطل الشرائع وتختل القوانين .

وقد عرفنا من كل ما كتبه هذا المفكر العامل أنه منطقي مع نفسه في مذاهب تفكيره .. ولكن ما كتبه عن الارادة والحرية بصفة خاصة ادل على هذه السليقة فيه ، أو أعمق دلالة عليها . من مسائل كثيرة طرقها ولا يستغرب فيها ان تتناسق وتطرد على وتيرة واحدة لظهور العلاقة بينها . وانما اختصاص الارادة والحرية بالتمجيد والتقديس آية من الايات الصادقه على اصالة التفكير والشعور فيما يكتب عن هذه الامور ، او هو آية على نفس مطبوعة بتفكيرها واحساسها على ادراك مساوىء الاستبداد والفطنة لمواطن ضرره ومواطن طبه وعلاجه ، فلا الشجاعة ولا الكرم ولا العفة ولا المروءة تصور الخلق المطلوب في مناضلة الاستبداد كما تصوره الارادة والحرية ، ولاشيء ينفع في ذلك النضال مع فقدان الارادة والحرية ، ولا بد أن تقترنا معاً لتمام الاهبة في ثورة الأمة على المستبد ، لأن الارادة بغير حرية تبع لصاحب السيادة ، ولأن الحرية بغير ارادة تفقد الباعث على الحركة فلا تدرى لها وجهة تذهب اليها . ولعل العبد يعتزم ويريد ويصمد على عزمه وارادته في خدمة سيده فلا جدوى لغير هذا السيد في ملكة الارادة التي يتصف بها عبيده ومطيعوه .

والاستبداد ـ كما لايخفى ـ يتلخص في تغليب ارادة واحدة لايسمح بارادة أخرى تعمل الى جانبها على خلاف هواها . فليس من الطبيعي ان يبقى لمن خضعوا له طويلا عمل يريدونه لانفسهم ويتدبرونه فيما بينهم ، فلا تعنيهم ارادة غير ارادة الحاكم المسلط عليهم ولا يشغلهم شاغل في حياتهم غير الخوف من غضبه والسعي الى رضاه ، وشر من عملهم له راغمين خوفاً منه ، ان يعملوا له راضين جهلا بحقيقته وانقياداً لخداعه وخداع اذنابه ومؤيديه

والواقع ان مؤلف طبائع الاستبداد قد حصر مشكلة الاخلاق جميعاً في وضع واحد : خلاصته انها « حرب ارادات بين الحاكم المطلق والرعايا المحكومين . فاستطاع من ثم ـ ان يحسم المشكلة حسما سريعاً بقسمه الاخلاق الى قسمين متعارضين : قسم لمصلحة الحاكم المستبد وقسم لمصلحة الرعايا المحكومين .

فمن مصلحة المستبد شيوع اخلاق الملق والنفاق والريبة والاثرة التي تشغل المحكوم بمنفعته القريبة دون كل منفعة عامة ينتفع بها هو او ينتفع بها غيره بعد حين : « وأقل مايؤثره الاستبداد في اخلاق الناس انه يرغم ـ حتى الأخيار منهم ـ على الفة الرياء والنفاق .. وأنه يعين الأشرار منهم على اجراء مافي نفوسهم آمنين من كل تبعة ولو أدبية . فلا اعتراض ولا انتقاد ولا افتضاح . لأن أكثر أعمال الاشرار تبقى مستورة يلقي عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة على ذي شر وعقبى ذكر الفاجر بما فيه . ولهذا شاعت بين الاسراء قواعد كثيرة باطلة كقولهم : اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ، وقولهم : البلاء موكول بالمنطق ، وقد تغالى وعاظهم في سد أفواههم حتى جعلوا لهم أمثال هذه الاقوال من الحكم النبوية ».

ومن آثار أخلاق الذلة والخضوع أنها تؤذي الاجسام فضلا عن العقول ، وتشيع المرض في بنية الحي كما تشيع المرض في ضميره ، وان في ذلك شاهداً بيناً « يقاس عليه نقص عقول الإسراء البؤساء بالنسبة الى الاحرار السعداء ، كما ظهر الحال أيضاً . . . . من الفرق البين في قوة الاجسام وغزارة الدم واستحكام الصحة وجمال الهيئات ».

ومن سوء أثر الاستبداد انه «يضعف الثقة بالنفس » ويفقد الناس ثقة بعضهم ببعض « فينتج من ذلك ان الإسرى محرومون طبعاً من ثمرة الاشتراك في اعمال الحياة ، يعيشون مساكين بائسين متوا كلين متخاذلين متقاعسين متفاشلين . والعاقل الحكيم لايلومهم بل يشفق عليهم ويلتمس لهم مخرجاً ويتبع أثر احكم الحكماء القائل : رب ارحم قومي فانهم لايعلمون »..

ولابقاء للاستبداد اذا تعود الناس الاشتراك في الرأي والتعاون على العمل. فعلى هذا الاشتراك يقوم نظام الرعايا الاحرار في الامم التي سقط فيها حكم الإستبداد وخلفته حكومة الإمة للامة : « سر الاستمرار على الاعمال التي لاتفي بها اعمار الافراد . نعم . الاشتراك هو السر كل السر في نجاح الإمم المتمدنة ، به أكملوا ناموس حياتهم القومية . به ضبطوا نظام حكوماتهم . به قاموا بعظائم الامور . به نالوا كل ما يغبطهم عليه أسرى الاستبداد الذين منهم

العارفون بقدر الاشتراك ويتشوقون اليه ، ولكن كل منهم يبطل الغبن لشركائه باتكاله عليهم عملا واستبداده عليهم رأيا ، حتى صار من امثالهم قولهم : مامن متفقين الا واحدهم مغلوب ... » .

ويرى الكواكبي ان حكم الاستبداد قد استفحل بين المسلمين بعد اهمالهم حياة الجماعة والمشاورة بين الامرين بالمعروف الناهين عن المنكر ، وان سبب الفتور الذي اصابهم ـ كما جاء بلسان خطيب من « خطباء » ام القرى « هو فقد الاجتماعات والمفاوضات ... اذ نسوا حكمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية لحج وترك خطباؤهم ووعاظهم ـ خوفا من اهل السياسة ـ التعرض لشئون العامة كما ان علماءهم صاروا يسترون جبنهم بجعلهم التحدث في الامور العمومية والخوض فيها من الفضول والاشتغال بما لا يعني ، وان اتيان ذلك في الجوامع من اللغو الذي لا يجوز . وربما اعتبروه من الغيبة والتجسس او السعي بالفساد فسرى ذلك الى افراد الامة وصار كل فرد لا يهتم الا بخويصة نفسه وحفظ حياته في يومه ، كأنه خلق أمة وحده . » .

ولما فرغ من قسمة الاخلاق بقياسه الدائم الى قطبين متقابلين : أخلاق الإستبداد واخلاق الحرية ، او اخلاق لمصلحة الحاكم المطلق واخلاق لمصلحة الرعايا نظر في تقسيمها درجات على حسب المصلحة التي تعني بها ، وانواعا على حسب نصيبها من الشرف والرفعة .

فالمصالح التي تحققها الاخلاق هي مصلحة الانسان نحو نفسه ، ومصلحته نحو عائلته ، ومصلحته نحو قومه ، ومصلحته نحو الانسانية ، وهذه هي الاخلاق العليا التي تسمى عند الناس بالناموس .

ثم هي انواع « الخصال الحسنة الطبيعية كالصدق والامانة والهمة والمدافعة والرحمة ... والخصال الكمالية التي جاءت بها الشرائع الالهية كتحسين الايثار والعفو وتقبيح الزنا والطمع ... ويوجد في هذا النوع مالا تدرك كل العقول حكمة تعميمه فيمتثله المنتسبون للدين أحتراما وخوفا ... والنوع الثالث الخصال الإعتيادية وهي مايكتسبه الانسان بالوراثة أو التربية أو الالفة .. والتدقيق يفيد ان الإقسام الثلاثة تشتبك وتترك ويؤثر بعضها في بعض فيصير بمجموعها تحت

تأثير الالفة الجديدة ... ترسخ او تتزلزل حسبما يصادفها من استمرار الالفة او انقطاعها .. فالقاتل - مثلا - لايستنكر شنيعته في المرة الثانية كما استقبحهامن نفسه في الاولى ، وهكذا يخف الجرم في وهمه حتى يصل الى درجة التلذذ بالقتل كانه حق طبيعي له ، كما هي حالة الجبارين وغالب السياسيين الذين لاترتج في قلوبهم عاطفة رحمة عند قتلهم أفراداً أو بما لغاياتهم السياسية اهراقا بالسيف أو ازهاقا بالقلم » .

وهنا ينول الامر الى مساوىء الاستبداد في افساد الاخلاق . لان ألفة الاحوال العامة تتبعه وتنطبع انطباع العادة في ظله : « ويكفيه مفسدة لكل الخصال الحسنة الطبيعية والشرعية والاعتيادية تلبسه بالرياء اضطراراً حتى يألفه ويصير ملكة فيه فيفقد بسببه ثقة نفسه بنفسه » .

ولا يفوتنا - ونحن نختم القول في آراء الكواكبي - أننا امام « برنامج عملي» يصدق عليه وصف « البرنامج » قبل ان يصدق عليه وصف الفلسفة أو المذهب أو النظرية . فلم يكن يعنيه ان يدرس الإخلاق من وجهة الاصول العامة والمبادىء النظرية كما عناه ان يدرسهامن زاوية النظر الى الإستبداد وأثر الحكومة المستبدة التي يبدأ منها ويعود إليها في كل شرح من شروحه وكل سند من اسناده ، ولهذا لخترنا اسم « البرنامج » لفلسفته العملية واخترناه إنصافا لمنهجه في التفكير وتبرئة له من ضيق الحصر الذي يلازم الفكر المحدود فلا يخرج منه لانه لايقدر على تجاوزه لا لانه مشغول في بحوثه بالامر الذي يعنيه .